

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

على الجندی

# الشعراء وإشاد الشعر



دار المعارف بمصر

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

# الشعراء

## وانشاد الشعر



# الشعراء وانشاد الشعر

تأليف  
على الجندى

عميد كلية دار العلوم . جامعة القاهرة  
وأستاذ الدراسات البلاغية بها  
سابقاً



دارالمخارف بمطر



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تصدير

كان النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ينصب لحسان بن ثابت منبراً في مسجده ، ويسمع منه ، ويقول له : «أجب عني ! اللهم أيده بروح القدس» .

\* \* \*

مرّ الزبير بن العوام - رضى الله عنه - بمجلس لأصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وحسّان يُنشدهم ، وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره !  
فقال : ما لي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريضة (١) ! لقد كان يُنشد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيُحسن استماعه ، ويُجزل عليه ثوابه ! ولا يشتغل عنه إذا أنشده .

\* \* \*

ومر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بحسّان - وهو يُنشد الشعر في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أرغاء كَرغاء البكر (٢) في مسجد الرسول ؟

فقال حسّان : دعني عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم : لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغير عليّ ذلك !  
فقال عمر : صدقت !

\* \* \*

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعجبه شعر الحنساء ، ويستنشد لها ، ويقول : « هيه يا حُنَّاس ، ويومئ بيده » .

(١) الفريضة - كجهينة : أم حسان .

(٢) البكر - بوزن بدر : الفتى من الإبل .

\* \* \*

تَغَنَّ فِي كُلِّ شَعْرٍ أَنْتَ قَائِلُهُ      إِنَّ الْغِنَاءَ لِهَذَا الشَّعْرِ مِضْمَارُ  
حسان بن ثابت

\* \* \*

قيل لسعيد بن المسيب : ها هنا قوم نساك يعيبون إنشاد الشعر ، فقال :  
لقد نسكوا نسكاً أعجمياً .

\* \* \*

اسمعه ممن قاله تَزَدَّدُ به      عَجَباً فحسَنُ الورد في أغصانه  
الزعفراني

\* \* \*

يزيد على الإنشاد حُسْنًا كأنني      نفثت به سحرًا وليس به سحرُ  
البارودي

\* \* \*

أرغني سمعك اللطيف كعهدي      بك، يَهْزُزُ عِطْفَيْكَ سَجْعُ الحمامِ  
الجندي



## المقدمة

هذا كتاب صغير في حجمه ، لكنني أستطيع أن أزعم أنه كبير في علمه !  
كما أستطيع أن أزعم - دون زهو ولا خيلاء - أنه في جملته يعدّ جديداً لم  
أسبق به ! كما أستطيع أن أزعم : أنه من الطرافة بمنزلة ، تفرض قراءته على من  
يقع في يده !

وبرغم قلة صحائفه - كما قلت - لا أستحي أن أصرّح : بأنني قد  
جهدت في جمع مادته ، ولقيت في تحريرها وتحبيرها عنتاً ورهقاً ! فهي  
ليست مما عقدت لها الأبواب ، وحفّلت بها الأسفار ، حتى يتناولها من يريد  
دانية الثمار ، مدلّلة القُطوف ! ولكنّها لُمعّ ، وشذرات عزيزة المال ، مغمورة  
في ثنايا غيرها ، يسقط عليها المؤلف مصادفة ، في أثناء قراءته كتب الأدب والتاريخ .  
ولحرصى على إفادة القارئ ، وبعث تشويقه ، وتروّيحه بالتنقل من فنن  
إلى فنن ، حرصت على تقسيمه إلى فصول قاصدة ، كلّ فصل منها متميّز  
من أخيه بما احتوى عليه ، مع اتصال أسبابها ، وتشابك أنسابها !

واجتهدت أن أجعلها دراسات منهجية موضوعية شافية ، مدعمة بالنصوص  
الشائكة ، والأمثال والشواهد الطليّة ، والموازنات المنصفة ، وأن أقوم فيها  
الشعراء إنشاداً من العصر الجاهليّ حتى يومنا هذا ، مع تجلية واجبات الإنشاد  
وشرائطه ، حتى يكون الشعراء - ولا سيما الشداة والناشئون منهم - على بيّنة  
وهدى ! وحتى يعرف كلّ شاعر مكانه ، فيريح ويستريح ، ولا ينزلق إلى  
ما يَعْصُ منه ، وينزل به !

وأنا واثق أنها ستقابل بالقبول ، ويجزّل بها النفع ، وتعمّ الفائدة  
- إن شاء الله - والخير أردت ، ونية المرء خير من عمله ، « وما توفيقي إلا  
بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .  
على الجندی



## الفصل الأول إنشاد الشعر

### النشيد في اللغة :

النشيد في اللغة : رفع الصوت . وهو أيضاً : الشعر المُتَنَشِّد بين القوم ،  
وجمعه : أناشيد .

واستنشدته شعراً : طلب منه إنشاده ؛ فأنشده إِيَّاه <sup>(١)</sup> .

ويقول الخُوَارَزْمِيُّ <sup>(٢)</sup> : النشيدُ : رَفَعُ الصَّوْتِ فِي ذِشْدَانِ الضَّالَّةِ  
— بكسر نون نشدان — ثم يستعار لرفع الصوت في الإنشاد .  
ذكره الفرغاني في جامعه .

وأنشد أبو النصر العُتُبِيُّ للتحالبي :

وَقَدَمْتُ وَالْأَيَّامُ تُنَشِّدُ فِي الْوَرَى      بَيْتاً تُجِيدُ نَشِيدَهُ الْآيَّامُ

\* \* \*

### الإنشاد موهبة :

الإنشاد : موهبة لها شأنها الخطير في امتلاك أُرِمَّةِ الآذان ، وجذب  
أَعِنَّةِ الحَدَقِ ، والتسلُّط على ألباب المستمعين في المحافل الحافلة ، والمقامات  
المشهوده ! ذلك لأنَّ من طبيعة الجماهير العربيَّة أن تطرب أَسْمَاعَهُمْ قَبْلَ قُلُوبِهِمْ !  
وفي هذا يقول ابن حَيَّوْس — في وصف قصائده — <sup>(٣)</sup> :

إِذَا أُنْشِدَتْ كَادَتْ لِفَرْطِ بَيَانِهَا      تَعْيِيهَا الْقُلُوبُ قَبْلَ وَعْيِ الْمَسَامِعِ

( ١ ) انظر الصحاح والقاموس ولسان العرب .

( ٢ ) شرح سقط الزند — القسم الثالث — ١٠٨٢ ( ط . الدار القومية ) .

( ٣ ) ديوانه — ١ — ٣٣٢ ( ط المجمع العلمي بدمشق ) .

فجعل السامع أصلاً في وعى الكلام ، وأنها - في العادة - تسبق القلوب في الوعى والطرب .

فالموسيقى اللفظية هي بلا شك أهم وسائل الانتفاع بالأصوات في فن الأدب ، لأن هذا الانسجام هو أكبر عامل في الإيحاء بذلك الجزء من العاطفة ، أو الشعور الذى لا يمكن أن تحيا التجارب بغيره<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن الأداء الشاجى ، والإلقاء المنغم ، والصوت العذب ، يستهويهم بادئ ذي بدء ، ويستحوذ على مشاعرهم أول وهلة ، وينفث في أعصابهم خدرًا لذيذًا ، ويصرفهم عمّا وراء الصور اللفظية : من معان وأفكار وأخيلة ، ربما كانت من النوع التآفه ، أو العقيم ، أو الفاسد ، أو المتناقض ، أو المُحال ! وصدق الشاعر في قوله :

إِنَّ الْحَدِيثَ تَغَرَّ الْقَوْمَ جَدُّوهُ      حَتَّى يَغَيِّرَهُ بِالْوِزْنِ مِضْمَارُ  
فَعِنْدَ ذَلِكَ تَسْتَكْفِي بِلَاغَتِهِ      أَوْ يَسْتَمِرُّ بِهِ عِىٌّ وَإِكْثَارُ

وكأَيِّن من قصيدة اهتزَّ الناس لسماعها عجبًا ! وترنَّحوا بها طربًا ! حتى إذا نُشِرت في صحيفة ، أو دُوِّنت في كتاب ، وقرءوها في تُوْدَةٍ وَرَوِيَّةٍ ، زَرَوْا عليها مَبْنًى وَمَعْنًى ، وَعَدُّوها من سَقَطِ المَتَاعِ ! وأنكروا على أنفسهم استحسانهم لها أولاً ، واتَّهَموها بالغفلة والبلسه ! ولكنها روعة الإنشاد التى تنقل السامع من عالم الوعى ، إلى عالم الطرب الموشئ المجنَّح ، المتموج بالنشوة المسكرة .

إن هذه الموسيقى اللغوية ، إنما تكون روعتها وصيغتها ، وأوزان توقعها من اضطراب النفس في بعض مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل أو نحوها ، فتتَرَى بكلام المتكلم من أبعد موضع في قلبه ، حتى تنتهى به إلى الحلق ، ترسله من هناك ، وكأن ألفاظه عواطف تتغنى<sup>(٢)</sup> !

\* \* \*

( ١ ) قواعد النقد الأدبى ٤٢ .

( ٢ ) إعجاز القرآن للرافعى - ٢٢١ .

## حافظ إبراهيم شاعر المحافل :

وقد كان شاعر النيل المرحوم « محمد حافظ إبراهيم » أعظم شعراء المحافل في عصره ! فكان في إنشائه للقصائد غالباً ، يستحضر في نفسه : أنه يخاطب آذان المستمعين ، ويثير فيهم الطرب الوقتي . ويستدرّ تصفيقهم وهتافهم ، فيعتمد على موسيقى التعبير ، ونغم الأداء ، وخلاصة الصوت ، أكثر مما يعتمد على براعة الخيال . وبداعة التصوير ، وعمق الفكرة ، ودقة المعنى ، والتأمل الفلسفي . وإيراد طرائف الحكم والأمثال . فكان شعره — على فصاحته وجزالته — يلذّنا إلقاءً ، ويروقنا مسموعاً ، أكثر مما يروقنا مقروءاً .

وإذا كان الكلام المنشور يزيد جمالا وروعة ، وينبئ في الصدور ، ويحلّو في الآذان ، بإحسان مخارج الحروف ، فمن باب أولى الكلام المنظوم المنغوم أصالة !

واعتبر ذلك بما ذكره : من أن الحمحى خطب خطبة إماماً<sup>(١)</sup> ، فأصاب فيها معاني الكلام ، وكان في كلامه صغير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة ! فأجابه زيد بن علي بن الحسين بكلام في جودة كلامه ، إلا أنه فضّله بحسن المخرج ، والسلامة من الصغير ! وفي ذلك يقول عبد الله بن معاوية :

صَحَّتْ مَخَارِجُهَا وَتَمَّ حُرُوفُهَا      فَلَهُ بِذَاكَ مَزِيَّةٌ لَا تُنْكَرُ

\* \* \*

## إنشاد حافظ :

وفي إنشاد حافظ يقول الأستاذ أحمد أمين<sup>(٢)</sup> . . . كان يؤثر في الجماهير بإلقاءه ، بالقدر الذي يؤثر فيهم بنفس شعره ! لقد كان في نبرات صوته ، وحسن إجادته في الإلقاء ، يلعب بعواطف السامعين ، كما يلعب بها

(١) الإمام : الزواج .

(٢) مقدمة ديوان حافظ المطبعة الأميرية .

بألفاظه ومعانيه ! ومن أجل هذا يحسن ألاّ يقوم شعر حافظ ، ومقدار أثره في الجمهور ، بمقدار ما يقيسه قارئ لديوانه ، فهو بقراءته يفقد جزءاً كبيراً من تأثيره السحريّ؛ الذي كان يتركه في نفس سامعه ! ومن أجل ذلك كان يطيل الوقت في تخيّر اللفظ الذي يحسن وقوعه في السمع ، كما يتخيّر الانسجام ، فيتغنّى بالبيت قبل أن يدخله في عداد شعره ، وينصت إلى جرسه ، ووقعه على سمعه ، قبل أن يبدأ بإلقائه على الناس .

ويقول فيه شاعر الأقطار العربية « خليل مطران » : حافظ إبراهيم يقول الشعر في كل مكان ، يتفق فيه أن يخلو بنفسه . ومن عادته دخول « حديقة الأز بكية » بعد الظهر طلباً للخلوة ، ولا يختلط عليه الفكر خلال الضجيج المحيط به !

ويقول : يتعب في قرض قريضه تعب النّحات الماهر ، في استخراج مثال جميل من حجره !

ويقول : حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ، ينسج على منوالها ، ويتخيّر نفائس مفرداتها ، وأعلاق حلاها !

ويقول : إذا صبّ البيت في قالب من العروض ، أعاده نغمًا على سمعه ، مُستشيرًا بذلك ذوقه عن طريق أذنه ، وطالما صدّقه الأذنُ بنصيحتها .

أما تغنيّه فبدويّ ، أخذه عن الشيخ « عبد المحسن الكاظمي » وطريقته : أن ينطق بالكلمات ملحنةً تلحينًا ساذجًا : من إطالة في الحروف المعتلة ، ورجفة في القرار كرّة أربعة أنفاس ، وتقتضّب .

ويقول : وله غرام باللفظ لا يقلّ عن غرامه بالمعنى ، وفي أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظًا على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حينًا في التصوّر ، لم يفته الابتكار في التصوير<sup>(١)</sup> .

وفي كلام الأستاذين : أحمد أمين ، و خليل مطران ، كثير من وجوه الشبّه ، وإذا جرّدنا كلامهما من المجاملة ، كان الاتفاق واقعاً منهما : على

أنّ حافظ إبراهيم من « عبید الشعر » فى بناء قصيده وتنقيحه ، كأوس بن حجر ، وزهير بن أبى سلمى ، والخطيئة ، وطُفَيْل الغنوى — كما سمّاهم الأصمعى — وأنه من شعراء الصنعة لا الطبع ! وأنه يستوحى الشعر من أذنه ، ومن ذهنه ، ومن محفوظه ، أكثر مما يستوحى من قلبه ، ومن واعيته الباطنة ! وحافظ نفسه يعترف بذلك فى قوله : ولو كان مطران يُعْنَى باللفظ عنايته بالمعنى لسبقنا جميعاً ! أما أنا فأميت المعنى ، إذا لم يتفق لى لفظ رائع <sup>(١)</sup> .

ويقول فيه أستاذنا شاعر البادية المرحوم « محمد عبد المطلب » — وقد سألتته ذات مرة عن منزلة « حافظ » بين شعراء العصر — : نحن مجمعون على أن « حافظ » إذا سقط على المعنى الجيد ، فليس هناك من يسبقه فى اختيار الثوب اللائق به ! ولكن معانيه الجسياد قليلة ، وحظه من الابتكار ضئيل ! ويقول فيه عبد الرحمن صدقى <sup>(٢)</sup> : ... لقد أفدت من هذه المقارنة بين حافظ كما سمعته ، وحافظ كما قرأته : أنّ المقياس الحرى بأن يؤخذ به ، ويحتكم إليه فى تقدير شاعر النيل ، هو مقياس الشعر الخطابى ؛ فقد كان حافظ إبراهيم ينظم قصائده للإنشاد . وما يروى عنه : أنه كان فى حال نظمه للقصائد ، يرفع عقيرته بما يرد على خاطره ؛ تحرياً للأثر الخطابى ، فهو مطلبه الذى لم يكن يبرح ماثلاً نُصِبَ عينه ؛ إذ كان لا يخفى عليه أن هذا قبل غيره ، هو موطن قوته ، وأن فيه سرّ فضله وميزته .

\* \* \*

### مرثية حافظ لسعد زغلول :

والدليل على أن « حافظ إبراهيم » رحمه الله ! كان يعمل للمحافل حساباً ، وأن شعره يرتفع بإلقائه إلى منزلة لا يصل إليها حين يُقْرَأ . وأن روعة الإنشاد تحجب عيوب الشعر ، وتُذلل السامعين عن رؤيتها ؛ هذه القصيدة البائية

(١) حياة مطران : ٣٣٥ .

(٢) مهرجان حافظ : ١٥٢ - ١٥٣ .

التي رثى بها المغفور له « سعد زغلول » زعيم ثورة سنة ١٩١٩ م ، وأنشدها في حفل الأربعين ، ومطلعها<sup>(١)</sup> :

إِيَّاهُ يَا لَيْلُ هَلْ شَهِدْتَ الْمُصَابَا      كَيْفَ يَنْصَبُّ فِي النَّفُوسِ انْصِبَابَا  
بَلَّغَ الْمَشْرِقَيْنِ قَبْلَ انْبِلَاجِ الصَّبِيح      أَنَّ الرَّئِيسَ وَلَّى وَغَابَا  
وهي قصيدة طويلة حوت ألواناً من الندب ، وضروباً من النسيحة ، تملأ  
المسامع طنطنة ، وجلبة ، وضوضاء ، ليس وراءها طائل يُضاف إلى الثروة  
العقلية ، مع خلوتها من فلسفة الحياة والموت ، وسوق العبر والعظات ،  
وتصوير غرور الدنيا وخداعها ، ممّا يليق بهذا الموقف ؛ كمرآى أبي تمام  
والمتنبي والمعري وشوقي ، فهي شبيهة بهذا الشعر الذي يقول فيه القائل :

وما مثله إلا كفارغ بُدِّقَ خَلِيٌّ      من المعنى ولكن يُفَرِّقَ  
أو كما يقول المعري في شعر ابن هاني الأندلسي – وإن كان متجنّياً عليه –  
ما أشبهه إلاّ برحى تطحن قُرُونًا<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

### بيت زائف !

وقد جاء في هذه القصيدة المتقدمة بيت مُبْنَك مُضْحَك ، لم يكد يلج  
آذان السامعين في هذا المشهد التأبيني الحاشد – وفيهم الصفوة المثقفة من  
كل لون – حتى بَحَّتْ حناجرهم من هتاف الاستحسان ، وطلّاب الإعادة !  
وأدْمَوْا أَكْفَهُم بالتصفيق المتتابع ، ولات حين هُتَاف وتصفيق !

والبيت هو :

حَمَلُوهُ عَلَى الْمَدَافِعِ لَمَّا      أَعْجَزَ الْهَامَ – حَمْلُهُ – وَالرَّقَابَا

(١) ديوان حافظ : ٢ - ١٩٧ .

(٢) كان أبو العلاء إذا سمع شعر ابن هاني قال : هذا القول ، وذلك لأجل القعقة التي في  
أنفاذه ، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ ! قال ابن خلكان : ولعمري ما أنصفه في هذا المقال ،  
وما حمّله على هذا إلا الإفراط في تعصبه للمتنبى – وفيات الأعيان - : ٢ : ٦ - ٧ .



فلما ذهبَت السَّكْرَة ، وجاءت الفكرة — كما يقولون — وقرأوا القصيدة في الصحف قراءة الدارس المتبصّر المتدبر ، تبينَ لهم : أن البيت غاية في الهُجْنَة ! ونهاية في السُّخْف ، وأنه ذمٌّ صريحٌ للزعيم المرنئ ! فهو لا يَصوّر أعمال « سعد » ولا مآثره ، ولا نواحيه الوطنية الخالدة ، ولا مواهبه المعنوية المرموقة وإنما يُمثِّله جسداً ضخماً طُوالاً هائلاً ، كجسد « عُوْج بن عُوْج »<sup>(١)</sup> كما تتحدث عنه الأساطير !

ولم يكن بُدُّ أن يُحمَل مثل هذا الجسم العملاق ، الخارج عن حدود المعقول على متون المدافع — كما قال — لا على متن مدفع واحد ! لأن أعناق الرجال أرقّ وأدقّ وأضعف وأعجز عن حمله !

وفى مثل هذا البيت الفاسد المعنى ؛ يقول ابن رشيق : فإن اختلَّ المعنى كله وفسد ، بقي اللفظ مَوَاتًا لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطَّلَاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين ، إلا أنه لا يُستفَع به ، ولا يفيد فائدة<sup>(٢)</sup> !

ولا ندرى كيف وقع حافظ — على ذكائه وأمعنيته ، وبصره بالنقد، وحذقه بالنكتة — على هذا البيت الفَسَل الرديء المخشوب ؟ !

ولكن لا عجب ؛ فقد كان مستغرقاً في اتِّخَاذ الوسيلة التي يخلب بها الشُّهُود ، فألهاه ذلك الزخرف اللفظي عن صواب المعنى ! ومهما يكن ؛ فقد بلغ ما يصبو إليه ! ألم يصفقْ له السامعون أكثر ممَّا صفقوا لشوقي والعقاد ؟ !

\* \* \*

### الإخلاء الشعري :

وهكذا كل شعراء الإنشاد ؛ تبدو قصائدهم فخمة جليلة ، ذات ديباجة

(١) عوج بن عوق — بضمهما — : رجل ولد في منزل آدم ، فعاش إل زمن موسى ، وذكر من عظم خلقه شناعة ، ولا شك أنه إنسان خرافى !

(٢) العدة : ١ - ٨٠ .

ملساء أليقة بهيجة ، وذات معان قريبة سهلة بسيطة ، وقواف خفيفة عذبة مرنة فائنة !

وليس عليهم بعد ذلك ، أن تكون مغسولة من الأفكار البعيدة الغور ، والصور الطريفة التركيب ، والأخيلة الزاهية في السماء ؛ والعواطف المتأججة ! وهو ما يسمونه : « الإخلاء » .

وفي ذلك يقول محمد بن سلام : لم يكن للأعشى بيت نادر على أفواه الناس — مع كثرة شعره — كأبيات أصحابه .

ويقول أبو حاتم : سألت الأصمعيّ عن الأعشى — أعشى بنى قيس ابن ثعلبة — أفحل هو ؟

فقال : لا . ليس بفحل !

فقلت له : ما معنى الفحل ؟

قال : يريد أن له مزية على غيره ، كمزية الفحل على الحيقاق<sup>(١)</sup> .

ومثل هذا يقال عن أشجع السلمى ؛ فقد حكى عن البحرى : أنه قال : فاوضت ابن الجهم فى الشعر .

— وذكر أشجع السلمى — فقال : إنه كان يُخلّى ، فلم أفهمها عنه ، وأنفت أن أسأله عنها !

فلما انصرفت فكّرت فيها ، ونظرت فى شعر أشجع ؛ فإذا هو ربّما مرّت له الأبيات مغسولة ليس فيها بيت رائع .

ويقول المرتضى : وجدت بعض من ينقد الشعر يقول : ليس فى شعر مروان بن أبى حفصة بيت يتمثل به غير قوله :

له خلّائقُ بيضٌ لا يغيّرُها      صرفُ الزمان كما لا يصدأ الذهب

قال المرتضى : ولا شك فى قلة الأمثال فى شعر مروان ، ولكن ليس إلى

(١) الحقاق — كظراف — : جمع حقة — كركة وحق : وهى من الإبل : الداخلة فى السنة

هذا الحد<sup>(١)</sup> .

وإخلاء الشاعر مأخوذ من قولهم : أخلى الراعى إذا لم يصب شيئاً من رشقه كله الغرض ! فجعل ذلك قياساً .

\* \* \*

### حافظ والعقاد وغنيم :

ونعود إلى بيت حافظ المتقدم ، فنقول : نحسبه نظر فيه إلى قول القائل<sup>(٢)</sup> :  
وليس صريرُ النعش ما تسمعونه ولكنَّه أعناقُ قومٍ تَقَصِّفُ  
وليس فتيقُ المسك ما تجدونه ولكنَّه ذاك الثَّناءُ المُخَلِّفُ  
فخانه النظر ، وجانبه التوفيق !

على أن العقاد — رحمه الله — قد توافى معه على هذه الصورة اللفظية ، ولكن لم ينزل إلى ما انزل إلى من فساد المعنى !

يقول في حفل التأيين نفسه من قصيدة مفرطة الطول<sup>(٣)</sup> :

خرج المدفعُ يطوى مدفعاً الأساطيلُ — أتقته — والحصونُ  
ساكننا بين يديهم بعدما زلزلَ الشرقَ على المغتصبين  
حوَّلَه من عسكر أو عُزِّل جيشُ أجنادٍ له مُتَّبِعُونَ  
ويقول محمود غنيم في رثاء المرحوم « محمد محمود » رئيس حزب الأحرار  
الدستوريين ، وأحد رؤساء الوزراء السابقين :

مدفع خاكد على مدفع سا رٍ من الوجد وارى الزفرات  
فلم يقع في مثل هذا التهافت<sup>(٤)</sup> :

(١) أمال المرتضى - ٣ ، ٣٣ - ٣٤

(٢) انظر قصتهما في أمال القائل - ١ - ١١٢ .

(٣) ديوان من دواوين - ٢٠٧ .

(٤) صرخة في واد - ١٨٠ .

### الشعر الذى يحسن مسموعاً لا مقروءاً :

ومثل هذا الشعر الذى يحسن مسموعاً لا مقروءاً ، أو على الأصح يحسن مسموعاً أكثر مما يحسن مقروءاً ، يصوره لنا القدامى من شعراء ونقاد فى عبارات تختلف لفظاً ، وتكاد تتحد معنى !  
من ذلك : أن ذا الرّمة سأل الفرزدق : كيف ترى شعرى هذا يا أبا فِرَاس؟—  
لشعر أنشده إياه .

فقال الفرزدق : أرى شعراً مثل بعر الصّيران<sup>(١)</sup> ؛ إن شممت شممت رائحة طيبة ، وإن فتّت فتّت عن نَسْنِ !  
وقيل لحرير : كيف ترى شعر ذى الرّمة ؟  
قال : نُقْطَ عَرُوس ، وأبعار ظباء !  
وهو كقول أبى عمرو بن العلاء فى شعر ذى الرّمة : نقط عروس تضمحلّ عن قليل ! وأبعار ظباء لها مَشَمٌّ فى أول شمّها ، ثم تعود إلى أرواح البعر !  
ويقول الأصمعى فى معنى : « نقط العروس وأبعار الظباء » : إن شعر ذى الرمة حلّو أول ما تسمعه ، فإذا كثر إنشاده ، ضعف ، ولم يكن له حسن ؛ لأن نقط العروس ، إذا غسلتها ذهبت .

وأبعار الظباء ، أول ما تُشمّ توجد لها رائحة ما أكلت الظباء من الشّيح والقيصوم والجشجاث<sup>(٢)</sup> والنبت الطيّب الريح ، فإذا أدمنت شمّه ذهبت تلك الرائحة .

ويقول المبرد : معنى نقط العروس : إنما تبقى أول يوم ، ثم تذهب ، وبعر الظباء : إذا شممت من ساعته ، وجدت منه كرائحة المسك ، فإذا غبّ<sup>(٣)</sup> ، ذهب ذلك .

( ١ ) الصيران : جمع صوار — ككتاب وغراب — وهو القطيع من البقر .

( ٢ ) الشّيح : نبت معروف . والقيصوم : نبت ، وهو صنفان أنثى وذكر ، النافع منه أطرافه . والجشجاث : نبت .

( ٣ ) غب : أغب القوم جاءهم يوماً وترك يوماً ، وفى الزيارة أن تكون كل أسبوع .

وسمع أعرابي رجلاً ينشد شعراً لنفسه ؛ فقليل له : كيف تراه ؟  
فقال : سكرٌ لا حلاوة له !

ويقول الأصمعي في شعر لبید : كأنَّه طيلسان طبرى ؛ جيد الصنعة ،  
وليس له حلاوة .

ويقول ربيعة بن حذار الأسديّ في شعر عمرو بن الأهتم : شعرك كبير ود  
حَبَرٌ<sup>(١)</sup> يتلألُ بها البصر ، فكلَّمَا أُعيد فيها النظر ، نقص البصر !  
ويقول إسحاق الموصلي : قال لي الفضل بن الربيع : يا أبا محمد ، إن  
من الشعر لأبياتا ، مُدَّس المتون ، قليلة العيون ، إن سمعتها لم تَفْكَه لها ،  
وإن فقدتها لم تَحْتَجْ لها .

وليس معنى هذا أن شعر حافظ كله من هذا النوع الذي أدخل فيه صاحبه ،  
أو من هذا النوع الذي تقدّم وصفه ؛ فهو أجلّ وأكبر من ذلك ؛ ولكننا  
نريد أن نبيّن : أنه كان — رضوان الله عليه — ينشئ القصيدة في الأعم الأغلب  
وعيناه ناظرتان إلى الحفل الذي سينشد فيه !

ومرماه : أن يناعى بها الآذان ؛ لا ليخاطب العقول ! وعذره : أنه كان ينشد  
شعره مع شعر شاعرين عملاقين ؛ هما « شوقي ومطران » .

وقد كان يعرف تمام المعرفة — ومثله لا تخفى عليه أقدار الرجال — أنه دون  
الأوّل في كل شيء ! وأنه دون الثاني في تجديده ، واختراعاته ، وسبحاته  
الخياليّة ! فكان لا بدّ له من اللجوء إلى ما نسمّيه : « البلاغة الصوتية » لينازع  
صاحبيه إعجاب السامعين في حلبة الإنشاد ، وقد كان يصل إلى ذلك دائماً .  
رحم الله الجميع !

وصفوة القول : أن اجتماع الإنشاء الجيد ، والإنشاد الجيد ، من الفتن الكبرى  
للنفوس ! والحلّابات العظمى للألباب ، تفعلُ بها فعل السحر ! ولقد صدق  
رؤبة بن العجاج حيث يقول في صفة شاعر :

( ١ ) الخبر — كمنب — : جمع حبرة — كعنبه — وهو برديمان .

لقد خشيت أن تكون ساحرا راويةً مرّاً . ومرّاً شاعرا  
فاستعظم حاله حتى قرّنه بالسحر ! .

ومن حقنا على شعراء الإنشاد ، أن يتدبروا ما قال ابن رشيقي : قد قيل  
لكل مقام مقال ، وشعر الشاعر لنفسه ، وفي مراده ، وأمور ذاته : من مزح  
وغزل ومكاتبه ومجون وخمرية ، وما أشبه ذلك ، غير شعره في قصائد الحفل  
الذي يقوم به بين السّمّاطين<sup>(١)</sup> ،

إنه يقبل منه في تلك الطرائق عفو كلامه ، وما لم يتكلّف له ، ولا ألقى  
به بالا ، ولا يقبل منه في هذه إلا ما كان مُحكّكاً<sup>(٢)</sup> ، معاوداً فيه النظر ،  
جيداً لا غث فيه ولا ساقط ولا قلق<sup>(٣)</sup> .

وفي مثله يقول ابن حمديس :

زِنٌ بديع الكلام وزناً مُحَرَّرٌ      مثلما يُوزن الكلامُ المُشَجَّرُ  
وتكلم بما يزينك في الحفل      وتَقْنَى به علاءٌ ومَفْخَرُ  
إنَّ حسن الثناء بعدك يَبْتَمَى      لك بالذكر منه عيش مُكَرَّرُ  
روحٌ معنّاك جسمه منك لَفْظُ .      وعلى كل صورة يتصوّرُ  
فإذا ما مقال غيرك أَضْحَى      عَرَضاً فليكن مقالُك جوهرُ

إنه يكفي شاعرنا «حافظاً» أن يجمع بين سلامة الديباجة وإشراقها ، وعبقريّة  
الإنشاد ، وعبقريّة الحديث ! أجل ؛ فلقد كان «حافظ» المحدث ، أبرع  
من حافظ الشاعر ! وليست مهارة الحديث بالشيء الهين ! فمهارة الحديث  
تتناول أيضاً ما للمحدث من شخصيّة ، قد يكون أثرها أكبر وأعمق من  
أثر الألفاظ<sup>(٤)</sup> .

(١) السّمّاطان : الصّفان .

(٢) المحكك : المنقح .

(٣) العمدة - ١ - ١٣٣ .

(٤) قواعد النقد الأدبي - ١٥ .

## الفصل الثاني

### الشعر ينشد ولا يقرأ

اللغة العربية لغة غنائية :

اللغة العربية من اللغات المُوغلة في القدم ، واللغات القديمة من سماتها كثرة الإيقاع والتنغيم ، وهى لذلك تفوق اللغات الحديثة فوقاً واضحاً في الموسيقى والغناء !

ولغتنا العربية — إلى ذلك — لغة أناقة ، وزخرف ، ومبالغة ، وتهويل ، والنغم والوزن والتطريب والرّنين ، من عناصرها الرئيسة ، وصفاتها الأصيلة ! ثم إنّ فيها من القوافي المتناسبة ، ما يتعدّر وجوده في سائر اللغات (١)

وشعرها المشتقّ من كيائها يحمل خصائصها وميزاتها ، فهو كلام موسيقىّ منغمّ متوازن — على اختلاف بحوره وقوافيه — وهو هتاف النفس حين تضطرم بنوازع النشوة والألم ، والسرور والحزن ، والرضاء والغضب ، والبسط والقبض ، والخوف والرجاء ، ينبع في يُسرّ من أعماقها سيّالاً مُتدارِكاً ، كأنما تجد في تناغم ألفاظه ، وتآخى أوزانه ، ورنين أجراسه ، واتّساق نبراته ، وتعاطف حروفه متنفّساً لهذا الجيّشان العنيف ! وتلطيفاً لهذه الثورة الصاخبة (٢) .

ويرى «كولاردج» : أن الوزن ينشأ من توازن في العقل ناشئ عن الانفعال القهري والجهود الاختياري . ومن التوازن بين الحالين المتعارضتين : حالة التأثير الوجداني وحالة الضبط الإرادي ، ينشأ الوزن الشعري ، وينبغي أن تجتمع هاتان الطاقتان اجتماع تمازج واتحاد ، لا اجتماع تقارب أو جواز . وهذا الاتحاد ينتج من نفسه لغة بديعة الصور ، محركة للذهن ، مثيرة للوجدان ، ويتجلى هذا في الشعر ، وإن كانت تبدو منه أحياناً في النثر بعض سمات . ونبضات القلب التي تبلغ

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ١٤١ .

(٢) فن الأسجاع - ١ - ٩

ستأوسبعين نبضة في الدقيقة عند الإنسان السليم؛ قد حاول بعض الباحثين أن يربط بينها وبين وزن الشعر . ويرون صلة وثيقة بين نبضات القلب ، وما يقوم به الجهاز الصوتي ، وقدرته على النطق بعدد من المقاطع ، يعادل ثلاثة لكل نبضة قلبية . ومن الممكن الربط بين نبضات القلب ، وحركات الرقص والموسيقى والغناء ، وهي فنون وثيقة الصلة بالشعر ، وكثيراً ما تتساند في المسرحيات ، وبخاصة في الأبرتات (١) .

ومن هنا كان الأصل في الشعر أن يلقي إلقاءً ، وإن شئت فقل : ينشد إنشاداً : لأنه غناء ، أو بسبب من الغناء ! وكثيراً ما يوصف بأنه : سجع الحمامة ، وتغريد البلبل ، وصدح العنديل ، وشدو الهزار ، ورنين الوتر ، ووسوسة الحلي ! وحسبنا أنه لا يتحقق غناء ، لا يقوم على أساس من الشعر الخاصي أو العامي ، ولا يمكن تلحين ولا تنغيم ، ليس له قيوام من الوزن ! .

وكما أن الشعر غناء ، كذلك الشاعر مغن أو شبيه بالمغني ، وقد كان اليونان والرومان يقولون : غني ؛ لمن ينظم أو يقول شعراً !

والعرب كذلك يقولون — أو كانوا يقولون — : فلان يتغنى بفلان أو بفلانة : إذا صنع فيهما شعراً ، ومن قول ذي الرمة :

أَحِبَّ الْمَكَانَ الْقَنْدَرُ مِنْ أَجْلِ أَنْنِي بِهِ أَتَغْنِي بِاسْمِهَا غَيْرَ مُعْجَم

وكذا يقولون : حدا به : إذا عمل فيه شعراً ، وفي ذلك يقول المزار الأسدي :

ولو أَنِّي حَدَوْتُ بِهِ أَرْفَأَنْتَ نَعَامَتَهُ وَأَبْصُرَ مَا يَقُولُ

(١) ديوان ابن زيدون ورسائله ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) أرفأنت : نفرت ثم سكنت ، وضعف واسترخى ، وأرفأن غضبه : زال .



### الشاعر مغن :

وقلما نجد شاعراً لا يصف نفسه : بأنه مغنّ ، أو مطربّ ، أو مُنشدّ ،  
أو مغرّد ، أو حمامة ، أو ورقاء ، أو قُسمرية ، أو بلبل ، أو هزّار ، أو  
عندليب ، أو كروان ، أو شُحرور ، وما إلى ذلك ، وبخاصة في الشعر  
الحديث .

يقول ابن نمير الثقفي :

يهيِّجني الحمامُ إذا تغنّى      كما سجع الحمام بالمرائي

ويقول المتنبي :

وما الشعرُ إلّا من رُواة قصائدي      إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر مُنشدّاً  
فسار به من لا يسير مُشمراً      وغنّى به من لا يُغنّى مُغرّداً

ويقول ابن زيدون :

حمامك شكوى صبّحتك هوادلاً      تنوح على أفنان آدابی الهدل<sup>(١)</sup>

ويقول ابن حيّوس — يصف شعره — :

يخفّ على الأفواه في الأرض كلها      فيشدوبه شرّبٌ ويحدوبه سَفَرٌ

ويقول ابن الخياط الدمشقي :

غرائب من أبكار مدحٍ كأنّها      كرائمٌ من أزهار روض فتائقٍ  
تشوق وتُصيّب السامعين كأنما      بها يتغنّى معبّدٌ أو مُخارق<sup>(٢)</sup>

(١) الهوادل : التي تهدل ، والهديل : صوت الحمام ، أو خاص بوحشيتها . والهدل : المتدلية  
جميع أهّل ؛ كأحمر وحمير .

(٢) معبد : مغن مشهور في الدولة الأموية ، ومخارق مغن مشهور في صدر الدولة العباسية .

ويقول مهيار - يصف قصيدته في ممدوحه - :

يَلَدُّ لَهَا مَدُّ النَّشِيدِ وَلَيْنُهُ      وَيُزْهِى بِهَا رَفْعُ الْكَلَامِ وَخَفْضُهُ

ويقول :

يُخَالِ بِهَا الرَّاوى إِذَا قَامَ مُنْشِدًا      بِمَا مَلَكَ الْإِطْرَابَ قَامَ مُغَرِّدًا

ويقول :

عِنْدَكَ مِنْهَا غَرْدٌ مُطْرَبٌ      وَعِنْدَ مِنْ عَادِيَتِهِ نَادِبٌ

ويقول صَرَدُورٌ :

تَلُومٌ عَلَى شَغْفَى بِالْقُدُودِ      فَهَبْنِي وَرَقَاءَ تَهْوَى الْغُصُونَا  
سِوَاءَ نَشِيدِي بَيْنَ النَّسِيبِ      وَتَرْجِيْعُهَا بَيْنَهُنَّ اللَّحُونَا

ويعدّ مهيار الديلمى أكثر شعراء العرب تشبُّثًا بذلك، فقلَّ أن تخلو له قصيدة لا يختمها بوصفه : أنه شاد أو مغرّد ، وأنها أنشودة أو أغرودة ، حتى ليفخر فيقول :

وَزَفِيرٌ عَلِمْتُ مِنْهُ حَمَامَ الدَّوْحِ      مَا كَانَ مِنْ حَنِينٍ وَسَجْعِ

ومن الشعر الحديث <sup>(١)</sup> يقول البارودى - فى وصف شعره - :

إِذَا مَا تَلَاهُ مُنْشِدٌ فِي مَقَامَةٍ      كَفَى الْقَوْمَ تَرْجِيْعَ الْغِنَاءِ نَشِيدُهُ

ويقول :

هِيَ مِنْ أَهَازِيجِ الْحَمَامِ وَإِنَّمَا      ضَمَنْتُهَا مَدَحَ الْهَمَامِ الْأَرْوَعِ

(١) آثرنا أن نقتصر على بعض الشعراء الذين نقلوا إلى جوار الله ! .

ويقول شوقي :

يا نائحَ الطَّلَحِ أَشْبَاهُ عَوَادِينَا      نَشْجَى لَوَادِيكَ أَمْ نَأْسَى لَوَادِينَا  
أَهْأَ لَنَا نَازِحِي أَيْكَ بِأَنْدُلُسٍ      وَإِنْ حَلَلْنَا رَفِيفًا مِنْ رَوَابِينَا

ويقول :

وَإِنِّي لَطَيْرٌ النَّيْلِ لَا طَيْرَ غَيْرُهُ      وَمَا النَّيْلُ إِلَّا مِنْ رِيَاضِكَ يُحَسَّبُ<sup>(١)</sup>

ويقول :

وَلَقَدْ أَقُولُ لِهَاتِفٍ سَحَرًا      يَبْكِي لِغَيْرِ نَوَى وَلَا أَسْرَ  
يَا طَيْرَ بُتِّ أَخَاكَ مَا يَجْرِي      إِنَّا كَلَانَا مَوْضِعَ السَّرِّ

ويقول :

وَهَبُونِي الْحَمَامَ لَذَّةَ سَجْعٍ      أَيْنَ فَضْلُ الْحَمَامِ فِي تَحْنَانِهِ

ويقول حافظ في شوقي :

فَاصْدَحْ وَغَنَّ النَّيْلَ وَاهْزَرْ عِطْفَهُ      يَكْفِيهِ مَا عَنَاهُ مِنْ أَحْزَانِهِ<sup>(٢)</sup>

ويقول خليل مردم :

ضَاقَ بِالْأَحْزَانِ ذَرْعًا      فَانْتَحَى الرُّوضِ النَّضِيرُ  
يَتَغَنَّى بِنَشِيدِ      مِثْلَ أَسْجَاعِ الطُّيُورِ

ويقول محمد عبد المطلب :

غَنَيْتُ نَشْوَانَ الْقَرِيضِ يَهْزُنِي      سِدْرٌ - بَرِيفٌ جُهَيْنَةٌ - وَنَخِيلٌ<sup>(٣)</sup>

(١) يخاطب بها السلطان عبد الحميد العثماني .

(٢) عناء - بالتشديد - : أنصبه وأتعبه من العناء .

(٣) السدر : شجر النبق . وجهينة : يريد بها جهينة الجرجاوية من أعمال مركز طهطا ،  
والشاعر ينسب إليها .

ويقول العقاد :

أنا أدرى يا فتاتى حين ألتقى بالأغاني  
أن شعري سمعته شفّتان شفّتان

ويقول المازنى :

عجبت من مائل عنا وإن لنا  
لكل روض نصير طائر غرد  
شعرا كما سجعت في الروض مرنان  
كذلك نحن حمامات وبستان

ويقول الرصافي :

وكم رام إسكاتى أناس أبى لهم  
ومن عجب أن يعشق الروض بلبل  
خنى الطبع إلا أن يروا لى حسدا  
ويمنعه ذبانه أن يغردا<sup>(١)</sup>

ويقول الزهاوى :

إننى والهزار فرعان من أصل  
وكلانا بث الصباية إلا  
كلانا قد مارس الأشعارا  
أننى قد أبنت وهو أشارا

ويقول مصطفى صادق الرافعى :

ألا يا عاصفير الربا قد عشقتها  
أعلمك النوح الذى لو سمعته  
فهبى أعلمك الهوى والبكا ! هبى  
رثيت لأهل الحب من شغف الحب

ويقول محمد الأسمر :

أما القوافى فهنا روضتها<sup>(٢)</sup>  
غنت بها اليوم شواذها فما  
صفا بها اطيروها معينها  
أبدع ما جاء به تلحينها

(١) ذبان - بكسر الذاو وتشديد الباء - : جمع ذبابة .

(٢) روضتها : يعنى منزل المرحومة السيدة الجليلة هدى شعراوى الذى أنشدت به القصيدة .

« أَطْيَارُ شَوْقِي » فِي رُبَاهَا أَتَّفَقْتُ      قُلُوبُهَا      وَاخْتَلَفْتُ لُحُونَهَا  
مُغَرَّدٌ      وَصَادِحٌ      وَسَاجِعٌ      لِكُلِّ شَادٍ      نَغْمَةٌ      يُبَيِّنُهَا

ويقول الشرنوبى :

أَنَا مَاضٍ فَلَا تَخَفُوْا لِقَبْرِى      لَا ،      وَلَا تُزْعَجُوا سَكُونِ رُفَاتِى  
حَطَّمُوا مِزْهَرِى وَذُرُّوا بَقَايَا      ه      وَصَلُّوا فِي مَأْتَمِ الذِّكْرِيَا

ومن النثر قول المنفلوطى : وهل بكاء الحمام إلا شعر ، لأنه يمثل فجعة  
البن ، ولوعة الفراق<sup>(١)</sup> !

ولعل أجمل وأبلغ ما جاء فى تصوير الشاعر : أنه لا يختلف شيئاً عن  
طيور الغرّد والسجع والصدّاح ، تلك الأبيات التى قالها ابن لؤلؤ الذهبى ،  
والتي انتهى فيها إلى تفضيل الشاعر على الورقاء فى جواه وأسائه ، وبكائه  
ونواحه ! قال :

وَتَنَبَّهْتُ ذَاتُ الْجَنَاحِ بِسُخْرَةٍ      بِالْوَادِيَيْنِ      فَتَنَبَّهْتُ أَشْوَاقِى  
وَرِقَاءٌ قَدْ أَخَذَتْ فَنُونَ الْحَزَنِ عَنْ      يَعْقُوبَ وَالْأَلْحَانَ عَنْ إِسْحَاقِ<sup>(٢)</sup>  
قَامَتْ تُطَارِحُنِ الْغَرَامَ جَهَالَةً      مِنْ دُونِ صَحْبِى بِالْحَمَى وَرِفَاقِى  
أَنْنَى تُبَارِئِنِى جَوِّى وَصَبَابَةً      وَكَآبَةً وَأَسَى وَفَيْضَ مَآئِى  
وَأَنَا الَّذِى أُمْلَى الْهَوَى مِنْ خَاطِرِى      وَهِيَ الَّتِى تُمْلَى مِنَ الْأَوْرَاقِ<sup>(٣)</sup>

ومثل ما تقدم فى جماله ورونقه، ولطفه قول أبى فراس الحمدانى — وقد

(١) النظرات - ٣ - ٣١١ .

(٢) يعقوب : يعقوب النّبى - عليه السلام ! - وإسحاق : هو إسحاق الموصلى المغنى المشهور .

(٣) فى الأوراق تورية لا تخفى .

سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية<sup>(١)</sup> :

أقول وقد ناحتُ بقُرْبِي حمامةٌ      أيا جارتِي هل تشعِرين بحالى  
معاذَ الهوى ما ذُقْتُ طارقةَ الهوى      ولا خُطِرَتْ منك الهمومُ ببالى  
أتحملُ محزونَ الفوادِ قَوادِمُ      على غُصْنٍ نائى المسافةِ على  
أيا جارتا ما أنصف الدهرُ بيننا      تعالى أقاسمُك الهمومَ تعالى  
تعالى ترى رُوحاً لدىَّ ضعيفةً      تَرَدَّدُ فى جسمٍ - يُعَدِّبُ - بالى  
أيضحكُ مأسورٌ وتبكي طليقةً      ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالى  
لقد كنتُ أولىَّ منك بالدمعِ مقلةً      ولكنَّ دمعى فى الحوادثِ غالى

\* \* \*

### الإنشاد فى العصر الحديث :

كان للإنشاد مكانة عالية فى العصر الذى عاش فيه إسماعيل صبرى وحفنى ناصف ، والثالث الشعرى المرموق : « شوق وحافظ ومطران » والعقاد ومحرم والكاشف وعبد الحليم المصرى والحارم ومن إليهم ، وهو جيل سابق لجيلنا . وقد بلغ من سيطرة الشعر على النفوس - فى هذا العهد - وحبّ الناس لسماعه من أفواه منشئيه ، أننا كنا - ونحن طلبة - نقطع المسافات البعيدة ؛ لنرى هؤلاء الشعراء ونستمع بإنشادهم ، مع علمنا : أن قصائدهم ستنتشر فى الصحف السيارة ، والمجلات الأدبية !

وأذكر : أنه فى حفل تأبين أستاذنا شاعر البادية « محمد عبد المطلب » - وكان فى قاعة يورت التذكارية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة - اشتد الزحام ، حتى إن الشاعر « خليل مطران » - وكان أحد المؤبّنين - لم يستطع الوصول إلى مكان الإلقاء !

وقد ساعد على ازدهار الإنشاد فى هذه الأيام ، كثرة النوادى السياسية

الحزبية ، والنوادي الأدبية ، وبيوت بعض سِراة المصريين ، الذين يجنون الأدب والشعر ، ويحتضنون أهله — وقد كانوا هم أدباء — وشبيهه الشئ منجذب إليه !

كما ساعد عليه أيضاً ؛ حفلات التكريم والتأبين التي كانت تقام بكثرة في هذا العهد ؛ فقلّما كان يرتقي موظف إلى درجة لامعة ، أو ينعم على إنسان برتبة أو وسام أو ينتقل إلى وظيفة في الخارج ، أو يحال على التقاعد ، أو يرحل إلى الدار الآخرة ، إلا أقيم له حفل شائق يتبارى فيه كبار الشعراء من خلصائه وأصفيائه ! كما ساعد عليه كذلك ؛ احتفال الصحف بنشره ؛ فكان لكل صحيفة صفحة أدبية خاصة بها ، يكتب فيها الأدباء اللامعون ، والشعراء النابهون ! وكانت هذه الصفحات المشرقة أشبه بمدارس أدبية ، تخرج فيها كثير من الأدباء والشعراء المعاصرين ! بل كان لكل شاعر صحيفة تعنى بإنتاجه وتقديمه للقراء ، فله شوقي ومطران مثلاً الأهرام ، ولحافظ المقطم وهكذا .

وقد كان لذلك أثره في نباهة شعراء الجيل الماضي ، وجلالتهم في نفوس أهله ، فجعل شعر شوقي ، وكل شعر حافظ ومطران تقريباً ، سمع في المحافل أولاً ، ثم قرئ في الصحف ثانياً ، فبنوا مجدهم الأدبي لبنة لبنة ، وحازوا فخرهم يوماً بعد يوم ، فحفظ الناس أسماءهم ، وارتفعت منزلتهم ، وطارت شهرتهم على مدى هذا الزمن المتطاوّل !

وأما نحن الخلف لهم ، فلم تتح لنا هذه الوسيلة ؛ لأننا ننشر آثارنا جملة في دواوين ، لا تتفارق في صحائف ! فلا يكاد يعرفنا إلا صفوة المثقفين الذين يعنون بالأدب ، وقليل ما هم ! وفرق بين شاعر يصافح اسمه وشعره الآذان ، ويطالع العيون في أحيان متقاربة راتبة ، وبين شاعر لا يُقرأ له إلا بعد الأمد المستطيل !

ثم أعقبت ذلك الازدهار ، فترة تراجع فيها إنشاد الشعراء بموت زعمائه ! واكتفى عشاقه بمطالعة في الصحف والمجلات ، ثم كفت الصحف عن نشره

كذلك بتغلب النزعة الخبرية عليها !

ثم شاء الله أن يزدهر الإنشاد مرة أخرى ، بقيام ندوات خاصة للشعر في الجمعيات الدينية ؛ كجمعية الشبان المسلمين ، والشبان المسيحية ، والجمعيات الأدبية ؛ كاتحاد الأدباء ، وندوة ناجي ، ورابطة الأدب الحديث وغيرها ، وعناية المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، بإقامة مهرج شعري سنوية في مصر وشقيقاتها العربيات ؛ كما كان للإذاعة وبخاصة البرنامج الثاني أثر حميد في ذلك .

\* \* \*

#### الوعى الشعري في الشقيقات العربيات :

ومن الإنصاف أن نذكر : أن الوعى الشعري في البلاد العربية ، والتحمس لإنشاده ، أقوى منه في مصر ، ويمكننا أن نعرف ذلك إذا عرفنا : أن متوسط من كان يحضر المهرجان الشعري الذى عقد بدمشق الفيحاء سنة ١٩٥٨ م يومياً نحو سبعة آلاف غير الجالسين على الأرض ، والواقفين بين الصفوف ، وعلى الجوانب ، والمتعلقين بالأسوار ، وأعمدة النور ، وأغصان الأشجار ، وغير المستمعين في الخارج ولا يحصى عددهم !

وقد بلغ من حضر المهرجان في الليلة الختامية عدداً ضخماً ، قدّر بثلاثة عشر ألفاً ، بل بخمسة عشر ألفاً ، وكان نصف الحضور على الأقل في كل ليلة من الجنس اللطيف : ما بين سيدة شمطاء ، وسيدة نصّاف ، أو فتاة في طراءة السنّ ، أو كاعب مُعَصِّير ! بل إن جريدة « الوحدة » قدرت عددهم بضعف عدد الرجال !

وقد رأيت من الحضور شيوخاً هرمى ، يتوكلون على العصا ، أو يستندون إلى أذرع أبنائهم ! ونساء عجائز يمشين وثيداً مترفقات ! ومن هؤلاء من وقف متحاملاً على نفسه ، في جو بارد كالسيّاط اللاذعة حتى انتهاء الحفلة ! وقد وقفت سيدة جليلة من أسرة القوّتلى ثلاث ساعات كاملة تسمع ولا تملّ ولا تتململ !



ومن الغريب أن هذا الحشد الحاشد ؛ يبدأ فى التفرّق حين ينتهى دور الأدب والشعر، ويبدأ دور الغناء؛ بعكس ما يحدث عندنا فى القاهرة تماماً<sup>(١)</sup>. ونود أن نقول : إنه لا عجب أن يسمّى الشعر غناء ، والشاعر مغنّياً ، فالشعر والغناء نوعان : الشعر ألفاظ موسيقية ، والغناء ألحان موسيقية ، والشاعر مطرب ، والمغنّى مطرب !

وفى ذلك يقول عبد الله بن يحيى<sup>(٢)</sup> : كانت العرب تغنى « النَّصْب » وتمد أصواتها بالنشيد ، وتزن الشعر بالغناء ، ولهذا قال حسان :

تَغَنَّ فى كلِّ شِعْرِ أَنْتَ قائلُهُ    إِنَّ الغناءَ لهذا الشعرِ مِضمَّارُ

والموسيقيون يستعملون الصور كالشعراء ، ولا فرق بينهما إلا أن هذه الصورة الموسيقية أصبحت محققة ، بعد أن كانت خيالية فى الشعر ؛ فطريقة الموسيقى هى عين طريقة الشاعر ؛ فيخاطب هذا الأخير القلب ، ولكن الموسيقى تمس الأذن ، وصورة الشاعر ليست إلا إدراكاً ، وأما صورة الموسيقى فإنها إدراك محقق ؛ فأحدهما يمنحنا فكرة الإحساس ، والآخر يعطينا الإحساس نفسه ؛ فبلغ القول إذًا : أن اللغة الموسيقية حقيقة ، ولغة أهل الأدب خيالية .

وحين استقلّت الموسيقى بنفسها ، وتمّ تمامها ، لم تستغن عن الشعر ، فاتّخذت منه صاحباً وقريناً ، ونعم القرين !

وقد كان الشعر العربى فى أوّليته حُداء للإبل ، وكان الشعر اليونانى والرّومانى يُتغنّى به وينشد للآلهة !

وكان بعض الشعراء على الأقلّ ، يلقى شعره على نحو من التّرم والتّطريب والتّلهين الفطرى ، ونذكر بذلك « هوميروس » صاحب « الإلياذة » الذى كان يلقى شعره فى ظل « القيثار » حين يقتصّ أخبار الأبطال .

وجماعة « التروبادور » فى القرون الوسطى .

( ١ ) راجع الوعى الأدبى فى دمشق ص ٣٤ من خمسة أيام فى دمشق .

( ٢ ) الموشح - ٤٠ .

والأعشى في العصر الجاهلي .

و « الكاظمي » و « بولس غانم » في العصر الحديث .  
 وشعراء الرّبابة الذين يغنون عليها أقاصيص « الزير سالم » و « كليب »  
 و « جساس » و « الجروهمجرس » و « حسن بن سرحان » وأخته « الجازية »  
 و « أبي ريبّا الأسمر سلامة » أو « أبي زيد الهلالي » و « دياب الحيل ولد ابن  
 غانم » و « أبي دوابة الخفاجي عامر » و « أبي سعدى الزناتي خليفة » و « يونس  
 العجبان » وأخويه « يحيى ومرعى » و « السّفيّرة عزيزة بنت معبد السلطان »  
 إلى غير ذلك من أبطال وبطلات الأساطير !  
 ونحن إذا سمعنا هذه القصص مجردة من الغناء ، لن نجد لها طعماً ، ولم  
 نحسّ لها مذاقاً !

هذا إلى أن الغناء بالشعر يبيّن ما عسى أن يكون فيه من عيب عروضي  
 كان خافياً ؛ يقول محمد بن سلام : لم يُقَو أحد من الطبقة الأولى ، ولا من  
 أشباههم إلا النابغة في بيتين من قصيدته التي أولها :

من آل مِيّة رائجٌ أو مُعْتَدِي عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزودٍ  
 وهما قوله :

زَعَمَ البوارحُ أَنَّ رَحِلَتْنَا غَدًا وبذاك خَبَرْنَا الغرابُ الأسودُ<sup>(١)</sup>  
 وقوله :

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرَدِّ إِسْقَاطُهُ فتناولته واتَّقَتْنَا باليد<sup>(٢)</sup>  
 بِمَخْضَبٍ رَخَصَ كَأَنَّ بِنَانَهُ عَنَمٌ يكاد من اللطافة يعقد

فلما قدم المدينة عيب عليه ذلك ، فلم يأبه له حتى أسمعوه إيّاه في غناء

(١) البوارح : ما مر من ميامنك إلى مياسرك ، وهي شؤم عندهم ضد السوانح .

(٢) النصيف - كاهير - : الحمار ، والهامة ، وكل ما غطى الرأس ، ومن البرد : ما له لوان .

— وأهل القرى ألطف نظراً من أهل البدو ، وكانوا يكتبون لجوارهم أهل الكتاب — فقالوا للجارية : إذا صرت إلى القافية فرتلي .

فلما قالت « الغراب الأسود » بالرفع . علم فانتبه فلم يعد فيه ! وقال : قدمت الحجاز وفي شعري ضعة . ورحلت عنها وأنا أشعر الناس !

والحق : أن القارئ الآخذ بحظ من الأدب . لا تكاد تُمْتعه قراءة الشعر إلاّ بصوت مسموع : ليشرك أذنه مع قلبه في هذه البهجة الفائقة ! على أن الشاعر — كما أعرف من تجاربي وتجارب غيري — إذا استعصى عليه الاسترسال في قرص الشعر . شرع في التغنى والترنم ؛ فسرعان ما تهتز نفسه من داخلها ، فيتدفق عليه القول ! ومثل ذلك يحدث له إذا استمع إلى أغنية يحبها . أو موسيقى يستريح إليها ! ولهذا قيل : مِقْوَد الشعر : الغناء !

وحكى عن أبي الطيب المتنبي : أن مُتَشَرِّفاً تشرف عليه<sup>(١)</sup> — وهو يصنع قصيدته التي أولها — :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلَيْكَ التَّبْرِيحُ      أَغْدَاءُ ذَا الرِّشَاءِ الْأَعْنُ الشَّيْخُ<sup>(٢)</sup>

وهو يتغنّى ويصنع . فإذا توقّف بعض التوقف . رجع بالإنشاد من أول القصيدة إلى حيث انتهت !

ومعنى ذلك : أن الشعر غناء . ويحتاجه الغناء !

( ١ ) التشرف على الشيء : الاطلاع عليه من فوق .

( ٢ ) الجلل هنا : الأمر العظيم ، وهو خبر يكنّ مقدم . والتبريح : الجهد والأذى وتوهج الشوق .

والشيخ : نبات معروف . والاستفهام اللّنى : أى ليس غداء هذا الرشاء الأغن — يريد المحبوبة الجميلة — من الشيخ كسائر غزلان البوادي ، وإنما يتغذى بمهج عاشقيه ! .

## الفصل الثالث

### إنشاد الشاعر شعره

وكما أن الأصل في الشعر أن يُنشَد إنشاداً ، كذلك الأصل أن ينشده صاحبه بنفسه ، إذا لم يكن هناك سبب يمنعه من إلقائه ؛ ذلك لأن القصيدة قطعة من الشاعر ، وصورة نفسه ، ونضح شعوره ، وفيض وجدانه ، وترجمان إحساسه ، ووسم تجربته !

وإذا كانوا يقولون : الأسلوب بالضرورة نفس الرجل<sup>(١)</sup> ، فما الظنّ بالأسلوب الشعريّ الثائر المحتدم ، الذي ينفث الشاعر فيه كلّ عواطفه ، ويلفّ فيه كلّ فلذات كبده وقلبه !

هذا إلى أنّ الشاعر أدرى بمراعاة معانيه في حال إنشاده ، وأعرف بما صاغه من جمل إنشائية وخبرية ؛ ترتبط بنفسه ارتباطاً وثيقاً ، وأقدر على تصوير انفعاله حين قذف ببيته ، ونقل تجربته كاملة إلى مستمعيه ، حتى كأنهم شركوه في قرض قريضه !

بل إن الذي يتطوّر بإلقاء شعر غيره ، لا يحسن الإلقاء إلا إذا كان فاهماً لمعانيه كلّ الفهم . حتى يستطيع أن يتقمص روح الشاعر ! ويتشرب عواطفه وأحاسيسه !

وقلّ : مثل هذا في الغناء أيضاً ؛ فإنّ مما يُعين على إجادته ، أن يكون المغنّى واقفاً على معاني الشعر ومراميّه ، محسّساً بخلاجات الشاعر ، وتباريح نفسه ، ونبضات قلبه ، ووقدة عواطفه !

وأنت تشعر بذلك تمام الشعور ، حينما تسمع معجزة الغناء « أم كلثوم » في أدائها المونق ، وتطرييها العجيب ، وترنيمها الشائق ، وانسياقها مع المعاني قبضاً وبسطاً ، ومع الألفاظ جهراً وهمساً ، وانعطافها يَمَنّة ويسرّة كالفنن

المسرّوح المطور ، مع هزّها لرأسها . وشدّها لمنديلها التقليديّ ، وآهاتها  
المحرّقة المحرّقة ، وتواجدها المذهل المثير ! فيكاد يصور لك الوهم لهذا التطابق  
الكامل بين الكلام والأداء : أنها ليست المغنية فحسب ، بل هي النازمة  
والملاحنة كذلك !

وليس لله بمستشكرٍ أن يجمعَ العالمَ في واحد

وقد أشار الأقدمون إلى أهمية إلقاء الشاعر شعره بصوته ؛ فمن ذلك : أن  
الشاعر أبا القاسم الزعفراني ، كان يوماً في دار الصاحب بن عباد ، فنظر جميع  
الخدم والحاشية عليهم ثياب الخزوز الفاخرة الملوّنة .

وكان الصاحب مشغوفاً أن يكسوهم بها ، فاعتزل الزعفراني ناحية ،  
وأخذ يكتب شعراً يطلب به من الصاحب ثياب خز أسوة بالحاشية ! فبصر به  
الصاحب . فقال : علىّ به !

فاستمهله الزعفراني ريثما يتمّ مكتوبه ! فأمر الصاحب بأخذ الدرّج<sup>(١)</sup>  
منه . فقام الزعفراني ، وقال : أيد الله مولانا الصاحب :

اسمعه ممّن قاله تَزَدَّدُ به عَجَبًا . فَحُسِّنُ الورد في أغصانه<sup>(٢)</sup>

والجالحظ يقول — في طلب شراب من بعض الحاضرة — : التّاج بهيّ وهو على  
رأس الملك أبهى ! والياقوت حسن . وهو في جيد المرأة أحسن ! والشعر حسن ،  
وهو من فم قائله أحسن ! والشراب حسن . وهو من عندك أحسن . والهدية  
حسنة ، وهي من عندك أشرف<sup>(٣)</sup> !

والشاهد في قوله : والشعر حسن . . .

وقال النّقاد : إن الشاعر إذا أنشد شعره . تظهر عليه الوجّمة<sup>(٤)</sup> ! وإذا

( ١ ) الدرّج — كدرب . وسبب — : ما يكتب فيه « الفرخ » .

( ٢ ) اليتيمة — ٣ — ١٧١ — معاهد التنصيص — ٢ — ١٥٣ .

( ٣ ) فصول التمثيل — ٨٠ .

( ٤ ) الوجّمة — كوردة — : السكوت على غيظ ، وفعله : وجم — كوعد — وجماً ووجوماً .

أنشد لغيره لا يبالي ما حدث من استحسان أو استقباح<sup>(١)</sup> !  
 المراد : أنه إذا أنشد شعره ، يتحفّظ في إلقائه ، ويعتريه خوف وهمّ  
 حدّر الإخفاق ! بخلاف ما إذا أنشد لغيره .  
 ويحدثون أن عليّ بن الخليل الشاعر . دخل إلى الرشيد — وفي يده قصّة —  
 وكان الرشيد جالساً للنظر في المظالم :  
 فلما رآه أمر بأخذ قصّته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحسن عبارة  
 لها ! فإن رأيت أن تأذن لي في قراءتها !  
 فأذن له ، فاندفع ينشد قصيدته :

يا خيرَ مَنْ وَخَدَتْ بِأَرْحُلِهِ نَجُوبٌ تَحَبُّ بِمَهْمَةٍ جَلِيسٍ<sup>(٢)</sup>  
 لَمَّا رَأَتْكَ الشَّمْسُ طَالِعَةً كَسَفَتْ بِوَجْهِكَ طَلْعَةُ الشَّمْسِ  
 تحكى خلافته ببهجتها أَنْقَ السَّرُورَ صَبِيحَةَ الْعُرْسِ<sup>(٣)</sup>

فاستحسنها الرشيد ! وقال له : من أنت ؟ فقال : أنا عليّ بن الخليل الذي  
 يقال فيه إنّه : زنديق !

فضحك الرشيد ! وقال له : أنت آمن !  
 وأمر له بخمسة آلاف درهم ! وخصّ به بعد ذلك ، وكثر مدحه فيه !<sup>(٤)</sup>  
 وكان الرشيد — لحبه للأدب ، وكلفه بالفصاحة ، وإعجابه بالكلام  
 الجيد ، ومعرفته بأفانين القول — يطرب لإنشاد الشعر . أكثر مما يطرب للغناء !<sup>(٥)</sup>  
 وكان دعبل الخراعى محبّاً لآل البيت — عليهم السلام — كثير التعصّب

( ١ ) إنباه الرواة — ١ — ٣٦٦ .

( ٢ ) الوخذ والحجب : ضرب من السير . والمهمه — كعمل — : المفازة البعيدة ، والمنزل القفر .  
 والجلس — كجمر — : الغليظ من الأرض .

( ٣ ) الأنق — كسبب — : الفرح والسرور .

( ٤ ) الأغاني « ساسي » — ج ١٣ ص ١٤ .

( ٥ ) تاريخ آداب اللغة العربية — ١ — ٥٩ .

لهم والغلوّ فيهم ! فلما دخل المأمون ببغداد<sup>(١)</sup>، أحضره<sup>(٢)</sup> بعد أن أعطاه الأمان -- وكان قد هجّاه وهجّأ أباه الرشيد هجاء فاحشاً -- فاستنشد مرثيته المشهورة في آل البيت ، وفجيعتهم في « كربلاء » ! وهى من جيّد شعره ، وأدلّه على صدق حبّه ، وإخلاصه لعتره نبيّه !

ولا يمكن أن يسمعها مؤمن بالله ورسوله ، ولا يحسّ اللوعة اللاذعة ، والحسرة الصادقة ! فاستغفاه دعبل ! فقال له المأمون : لا بأس عليك ! وقد رويتها ، وإنما أحببت أن أسمعها منك !  
فأنشده دعبل القصيدة ، وأولها :

مدارسُ آياتٍ خلّتْ من تِلاوةٍ	ومنزولٍ وحيٍّ مُقفرٍ العرصات <sup>(١)</sup>
لآلِ رسولِ الله بالخيفِ من منى	وبالبيتِ والتّعريفِ والجمراتِ
ديارٍ علىّ والحسينِ وجعفرٍ	وحمزةٍ والسّجادِ ذى الشّفّات <sup>(٢)</sup>
قفنا نسأل الدّارَ التى خَفَّ أهلُها	متى عهدُها بالصومِ والصلواتِ
وأين الألى شطّبتْ بهم غُرْبَةُ النّوى	أفانينَ فى الآفاقِ مفترقاتِ
أحبّ قَصِيّ الدارِ من أجلِ حبّهم	وأهجرُ فيهم أُسرتى وثِقائى

فلما انتهى إلى قوله :

ألم ترأنّى مُدّ ثلاثين حِجّةً	أروح وأعدّو دائمَ الحسراتِ
أرى فيئُتهم فى غيرهم مُتَقَسِّمًا	وأيديهم من فيئُتهم صَفِراتِ
إذا وتّروا مدّوا إلى أهلِ وترهم	أكفّا عن الأوتارِ مُنْقَبَضاتِ <sup>(٣)</sup>

(١) العرصات : جمع عرصة - كجمره - وهى كل بقعة بين الدور واسعة ، ليس فيها بناء .

(٢) الثفنات : جمع ثفنة - بفتح الثاء وكسر الفاء فيهما - وهى من البعير ركبته ، وذو

الثفنات : الإمام على بن الحسين - عليهما السلام - لأن كثرة السجود أثرت فى جيّته ، وجعلت له ثفنة

(٣) الأوتار : جمع وتر ، وهو الثار .

بنات زياد<sup>(١)</sup> في الحِجَالِ مصونةٌ وبنْتُ رسول الله في الفلوات  
فعند ذلك بكى المأمون — رحمه الله ! — وجدّد له الأمان ، وأحسن له  
الصلة .

فأنت ترى المأمون مع روايته للقصيدة ، لم ير بُدّاً أن يسمعها من صاحبها ؛  
لأن سماعها منه أشجى ، وأعمق تأثيراً !  
ومن الشعر الحديث المليح قول المازني : من مقطوعة ، عنوانها « إنشاد  
الشاعر شعره » :

وأعذب منه الشعرُ يتلوه ربُّه وَيُفْرِغُ فيه رُوحَه وهو يُنْشِدُ<sup>(٢)</sup>  
يُحْسِسُ إذا أجزى اللسانَ كأنَّما لماضى شجاء كَرَّةً تتردّد  
كما قرّت الأمواجُ بعدَ نِزائِها وما زالت الأمواجُ ترعُو وتزبد<sup>(٣)</sup>  
ويقول أحمد الزين في « جزيرة العرب » من قصيدة<sup>(٤)</sup> :

روضُ البيان بها كم بات مُزْدَهراً شَدُوُّ البلابل في أفنانه عَجَبُ  
والشاهد في الشطر الثاني من البيت ، ومعناه : أن البلابل يوثقنا صداحها  
حينما تكون على أفنانها !

وهو ينظر إلى قول الزعفراني المتقدم :

اسمعه ممن قاله تزدّد به عَجَباً فحسّنُ الورد في أغصانه

( ١ ) زياد : هو زياد بن أبيه الذي استلحقه معاوية بأبي سفيان مع مخالفة الشريعة لذلك !  
وقد قتل الحسين وآل بيته في زمن عبید الله بن زياد قبحه الله ! وإلى العراق من قبل يزيد بن معاوية .  
والقصرات : أصول الأعناق : جمع قصرة — كركبة — .

( ٢ ) الضمير في ( منه ) يعود على مكر الحسان في البيت قبله .

( ٣ ) النزاء : التوثب .

( ٤ ) ديوان الزين — ٢١ .



## الفصل الرابع

### تهيؤ الشاعر للإنشاد

يحتاج الإنشاد من الشاعر ، أن يحتفل له بما يجعله أنيقاً في العيون ، مهيباً في الصدور ، جليلاً في الأسماع ؛ ليلفت إليه الشهود حساً ومعنى ، ظاهراً وباطناً ، وليعطفهم عليه ، ويدفع نفرتهم عنه ، وسأمهم منه !  
وقد كان الشاعر في الجاهلية — إذا أراد الهجاء ، دهن أحد شقي رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلًا واحدة ؛ كما فعل ليبد بن ربيعة العامري<sup>(١)</sup> ، حين هجا أخواله من بني « عبس » تعصّباً لأعمامه « بني عامر » في حضرة النعمان ابن المنذر ملك الحيرة ، بالقصيدة التي أولها :

يا ربَّ هَيَجَا هِيَ خَيْرٌ مِنْ دَعَا      إِذَا لَا تَزَالُ هَامَتِي مُقَزَّعَةً<sup>(٢)</sup>  
ثم يقول :

نحن بني أم البنين الأربعة      ونحن خير عامر بن صَعَصَعَةٍ  
المُطعمون الجفنة المدَّعْدَعَة      والضاربون الهامَ تحتَ الخَيْضَعَة<sup>(٣)</sup>  
مهلاً — أبيتَ اللعن — لا تأكل معه      إِنَّ اسْتَه مِنْ بَرَصٍ مُلَمَّعَةٍ<sup>(٤)</sup>  
يقصد زياداً العبسي .

وكان ليبد — إذ ذاك — غلاماً صغيراً . فلم يكتف قومه العامريُّون بهيئته

(١) أمالي المرتضى - ١ - ١٣٥ .

(٢) مقزعة : القزع - كسب - : أن يحلق رأس الصبي ، ويترك مواضع منه متفرقة غير مخلوقة ، تشبيهاً بقزع السحاب .

(٣) المددعة بفتح الدالين : المملوءة . والخيضعة : أصوات وقع السيوف ، والبيضة : التي تلبس على الرأس ، والنبار ؛ والقول يحتمل كل ذلك .

(٤) أبيت اللعن : قال أبو حاتم : سألت الأصمعي ؛ فقال : معناه : أبيت أن تأق من الأمور ما تلعن عليه .

المتقدّمة ، فزادوا عليها ، أن حلقوا رأسه . وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلّة ليفخّموا مرآه !

وقد كان من تأثير هذه القصيدة ، التي ألقاها هذا الصبي الشاعر العبقرى ، أن صرف النعمان زياداً العبسى عن مجالسته ومؤاكلته ، وكان من خاصّة حاشيته ! وقد أراد زياد تكذيب الصبي . والاعتذار عن نفسه ، فلم يقبل منه النعمان ، وقال له :

قد قيل ما قيل إنّ صدقاً وإن كذباً فما اعتذارك من قول إذا قيلاً  
ويقول الجاحظ<sup>(١)</sup> : كانت الشعراء تلبس الوشى والمقطّعات والأردية السود ، وكل ثوب مشهّر .

ويقول : وكان عندنا منذ خمسين عاماً شاعر يتزيّياً بزى الماضين ، وكان له برد أسود يلبسه فى الصيف والشتاء ، فهجاه بعض الشعراء بقوله :

يَع بُرْدَكَ الْأَسْوَدَ قَبْلَ الْبَرْدِ فى قَرّة تَأْتِيكَ صَمّاً . صَرْد<sup>(٢)</sup>

ويقول : وكان لجُرْبَان<sup>(٣)</sup> قميص بشار الأعمى وجُبَّتَه لَبَنَتَان<sup>(٤)</sup> ، فكان إذا أراد نزع شىء منهما ، أطلق الأزارار : فسقطت الثياب على الأرض ! ولم ينزع قميصه من جهة رأسه قطّ !

ودخل العُمّانِيّ الراجز على هارون الرشيد لينشده . وعليه قلنسوة طويلة وخُفٌّ ساذج !

فقال له الرشيد : يا عُمّانِيّ ، إياك أن تنشدى إلّاّ وعليك عِمامة عظيمة

(١) البيان والتبيين - ٣ - ٣٨ .

(٢) القرّة كذرة : الباردة . والصرّد - : البرد .

(٣) الجربان - بضم الجيم والراء وتشديد الباء ، وفيه لغة أخرى وهى كسر الجيم والراء وتشديد الباء : جيب القميص .

(٤) لبنة القميص : بنيقته أو جربانه .

الكَوْر ، وَخُفَّانِ دِلَقَمَانِ (١) .

فبَكَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَدِ - وَقَدْ تَزِيًّا بَزَى الْأَعْرَابُ - ثُمَّ أَنْشَدَهُ وَقَبَّلَ يَدَهُ ،  
فَاعْظَمَ لَهُ الْجَائِزَةَ (٢) !

ودخل أبو تمام على المأمون في زِيٍّ أعرابيٍّ، فأنشده قصيدته التي أولها :  
دِمْنُ أَلَمٍّ بِهَا فَقَالَ سَلَامٌ كَمْ حَلَّ عُقْدَةً صَبْرَهُ الْإِلَامُ  
فَجَعَلَ الْمَأْمُونُ يَتَعَجَّبُ مِنْ غَرِيبٍ مَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الْمَعَانِي ، ويقول : ليس  
هذا من معاني الأعراب !  
فلما انتهى إلى قوله :

هَنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَاةً مِنْ حَائِثُهُنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامٌ (٣)  
قال المأمون : الله أكبر ! كنت يا هذا قد خلطت على الأمر منذ اليوم !  
وكنت حسبتك بدويًّا ، ثم تأملت شعرك ، فإذا هي معاني الحضريين ، وإذا  
أنت منهم !  
فقصَّرَ بِهِ ذَلِكَ عِنْدَهُ !

ومن هنا نفهم : أن الخلفاء كان يروقهم أن يقف المنشدون أمامهم في  
بِزَّةٍ شائقة ، وهيئة حسنة ! وأن لباس الأعراب كان محبباً إليهم ، أثيراً لديهم  
كما كان أثيراً لدى الشعراء أنفسهم ! أما إن المأمون عاب على أبي تمام ما  
عاب ، فلعله لم يسترح إلى هذا التناقض من شاعر ، يُنشد شعراً حضريًّا

(١) دلقمان : مثني دلقم - كدرهم ، وهو دويبة كالسمور . وفي العقد الفريد « دلقان »  
بفتح فكسر ، وفي البيان والتبيين : « دمالقان » مثني دمالق - بضم الدال وكسر اللام ، وهو الحجر  
الأملس .

(٢) عيون الأخبار - ١ - ٩٣ .

(٣) الحمام الأول - بفتح الحاء - : الحمام المعروف . والعيافة - بكسر العين - : زجر الطير  
كما كانوا يفعلون في الجاهلية ، والحمام الثاني - بكسر الحاء - : قضاء الموت وقدره : أي إن التشاؤم  
والتفاؤل بحسب اعتقاد الإنسان .

خالصاً ، في رداء بدويّ قح ! إذ أن المأمون — على غزارة علمه وكثرة معارفه ،  
واتساع ثقافته — لا يمكن أن يضيق بالمعاني الحضريّة في أزهى عصور الحضارة  
العباسيّة ، وفي بغداد أم الحضارة ، وعاصمة الدنيا ، ومن شاعر حضريّ يعدّ  
أستاذ الطبقة الثالثة من الشعراء الحضريّين المولّدين بعد بشار وأبي نواس .

وحين بلغ أبا تمام نعي محمد بن حميد الطوسي<sup>(١)</sup> ، غمس طرف رداءه  
في مداد ، ثم ضرب به كتفيه وصدره ، وأنشد قصيدته المشهورة ، التي تعد  
من أمهات قصائد الرثاء في الشعر العربي كله ، والتي مطلعها :

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدح الأمرُ      فليس لعين لم يفيض ماؤها عُذْرُ  
والتي يقول فيها :

وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردّه      إليه الحِفاظُ المرُّ والخلق الوعرُ  
ونفسٌ تعاف العارَ حتى كأنّه      هو الكفرُ يومَ الروعِ أو دونه الكفرُ  
فأنّبتَ في مُستنقعِ الموت رجله      وقال لها : من تحت أحمصك الحشرُ  
تردّي ثياب الموت حُمراً فما أتى      لها الليلُ إلا وهى من سُندسٍ خضرُ

وإلى ذلك أشار ابن الزنجيّ الكاتب المغربيّ من مرثيته لابن خلدون :

لولا الحياءُ وأن أجيءَ بفعلَةٍ      تقضى علىّ بها سيوفُ ملام  
وأكون مُتبعاً لأشنعِ سُنّةٍ      قد سنّها قبلي «أبو تمام»  
للبيستِ ثوبَ الثاكلات وكنت في      سود الوجوه كأنني من «حام»

وكان أستاذنا شاعر البادية الشيخ «محمد عبد المطلب» ، كثيراً ما  
ينشد شعره في المحافل ، وقد لبس «الكوفية» و «العقال» تذكيراً بأسلافنا  
الأوّل ! فكان ذلك يزيد في هيئته وجلاله ، ويجعله ملء البصائر والأبصار !

(١) هبة الأيام - ١٤١ .

(٢) ثياب الموت الحمر : كناية عن استشهاده ، والخضر : كناية عن دخوله الجنة .

ولا شك أن إنشاد صديقنا المجاهد البطل ، الأمير الشيخ « صقر القاسمي »  
 أمير « الشارقة » المحروسة ، يروونا تحت الكوفية والعقال ، أكثر مما يروونا  
 لو أنشدنا شعره الفحل الجزل مجرداً منهما !  
 ولعل السرّ في ذلك : أن « الكوفية والعقال » تترامى بأخيلتنا إلى مهد الشعر  
 الأول - وهو جزيرة العرب - وتستحضر في أذهاننا صور آبائنا ، وهم يتناشدون  
 أشعارهم في أسواق « عكاظ » و « مَجَسَّة » وذو المجاز<sup>(١)</sup> ، ثم في مِرْبَد  
 البصرة ، في أزيائهم الأعرابية الجميلة الرائعة ، فنعيش معهم برهة من الزمان ،  
 نسبح في أحلام سارة موشاة ! والحرّ يحنّ إلى أوليّته ، حنين الشيخ إلى  
 طفولته ، والعاشق إلى معاهد صبوته !

(١) عكاظ : موضع قرب الطائف . ومجنة - بوزن محبة - : موضع قرب مكة . وذو المجاز :

سوق على فرسخ من عرفة .

## الفصل الخامس

### عادة الشعراء في الإنشاد

للشعراء عادات في إنشادهم عُرِفوا بها قديماً وحديثاً !  
فالحنساء كانت تهتزّ في مشيتها ، وتنظر في أعطافها !

صنعت ذلك حين أنشدت قصيدتها الرائية التي تقول منها :

وإن صَخْرًا لتأتَمَّ الهداةُ به      كَدَّاهُ عَلمٌ في رأسه نارُ  
وإن صَخْرًا لمولانا وسيّدنا      وإن صَخْرًا إذا نَشْتُو لنَحَارُ<sup>(١)</sup>  
وكان كعب بن زهير - إذا أنشد شعراً - قال لنفسه : أحسنتُ وجاوزتُ  
والله ، حدّ الإحسان<sup>(٢)</sup> !

فيقال له : أتحلف على شعرك ؟

فيقول : نعم ! لأنّني أبصر به منكم !

وكان الكميت - إذا قال قصيدة - صنع لها خطبة في الثناء عليها !  
ويقول عند إنشادها : أيُّ عَلمٍ بين جنبيّ ؟ وأيُّ لسان بين فكيّ ؟ !

\* \* \*

وكان أبو النجم العجلىّ - إذا أنشد - أزبد ورمى بشيابه !

\* \* \*

وكان بشار - إذا أراد الإنشاد - صفّق بيديه ، وبصق عن يمينه وشماله !

ثم يَنشُدُ فيأتى بالعجَب !

وحكى أبو عبيدة<sup>(٣)</sup> ؛ قال : كنت أقود بشّاراً ، فررنا على « باهلة »

(١) المستطرف - ١ - ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق والرقم .

(٣) المنتخب من الكنايات - ١ - ١٤ .

فسلّم ، فلم يردّوا السلام !

فالتفت إلىّ ، وقال : من فيهم ؟

قلت : عمرو الظّالمى .

نفث - وكان إذا أراد الشعر نفث - وقال :

ارْفُقْ بعمرى إذا حرّكتَ نِسْبَتَهُ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنْ قَوَارِيرِ  
إِذْ جازَ آبَاؤُكَ الْأَنْدَالَ مِنْ مُضَرٍ جازتَ فُلُوسَ تِجَارٍ فِي الدَّنَانِيرِ

ويكنون عن الدعى بقولهم : هو عربى من قوارير !

وكما تُشَبَّهُ نسبةُ الدعى بالزجاج ؛ لضعفه وسرعة تكسّره ، تُشَبَّهُ أيضاً

بالزئبق ؛ قال بعضهم :

وَتَنَقَّلُ مِنْ وَالِدٍ فِي وَالِدٍ فَكَأَنَّ أُمَّكَ أَوْ أَبَاكَ الزُّبْقُ  
وكان الأصمعى - إذا أنشد شعراً - أتى بآخر فى معناه <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وكان الطّرمّاح بن حكيم لا يُنْشِدُ إِلَّا جالِسا !

وقد وفد هو والكميت بن زيد الأسدى ، على مخلّد بن يزيد بن المهلب

الأزدى !

فتقدّم الطرمّاح لينشد ، فقبل له : أنشد قائماً !

فقال : كلا والله ! ما قدّرُ الشعرُ أن أقوم له ، فيحطّ منّى بقيامى ،

وأحطّ منه بضراعتى ! وهو عمود الفخر ، وبيت الذكر لمّا ثر العرب !

فقبل له : تنحّ !

ودعى الكميت فأنشد قائماً ، فأمر له مخلّد بخمسين ألف درهم !

فلما خرج الكميت شاطرها الطّرمّاح ! وقال له : أنت - أبا ضبيثة -

أبعد همة ، وأنا ألطف حيلة !

\* \* \*

وكان الفرزدق يتكبر أن ينشد قائماً ! قال أبو عبيدة : كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعداً !  
فدخل إلى سليمان بن عبد الملك يوماً ، فأنشده شعراً فخر فيه بآبائه ، وقال من جملته :

تالله ما حملت من ناقة رجلاً مثلي إذا الريحُ لفتني على الكُور<sup>(١)</sup>

فقال سليمان : هذا المدح لى أم لك ؟

قال : لى ولك يا أمير المؤمنين !

فغضب سليمان ! وقال : قم فأتمم ، ولا تنشد بعده إلا قائماً !

فقال الفرزدق : لا والله أو يسقط إلى الأرض أكثر شعري<sup>(٢)</sup> !

فقال سليمان : ويلى على الأحمق ! ابن الفاعلة ! — لا يكتنى ! —

وارتفع صوته ! فسمع الضوضاء من بالباب !

فقال سليمان : ما هذا ؟

فقيل : بنو تميم على الباب ! قالوا : لا يُنشد الفرزدق قائماً ، وأيدينا

فى مقابض سيوفنا !

قال سليمان : فليأت غداً . ولننشد قاعداً<sup>(٣)</sup> .

وفى رواية : أن القصة مع يزيد بن عبد الملك لا سليمان .

وقد كان بعض الممدوحين يأمر بعض الشعراء بالجلوس ، إذا أعجب

بشعره !

فقد حكى أن ابن حيّوس . مدح مسلم بن قريش صاحب حلب بقصيدة

منها :

أنت الذى نفق الثناء بسوقه وجرى الندى بعروقه قبل الدّم

(١) من قصيدة فى ديوانه - ١-٢٦٢-٢٦٧ والكور : لوث العامة وإدارتها كالتكوير .

(٢) أكثر شعري : كناية عن رأسه .

(٣) شرح نهج البلاغة ج - ١٦ - ١٢٨ - ١٢٩ .



فاهتز لها ابنُ قريش وأمره بالجلوس ! فأتَمَّها جالساً !

ثم أجازَه بألَى دينار ، وقرَّبه<sup>(١)</sup> !

بل كان بعضهم يُجِلُّ بعض الشعراء عن الإنشاد أصالة !

فقد حدث عبد الله التميمي ؛ قال : دخل مسلم بن الوليد على الفضل بن سهل ؛ لينشده شعراً ؛ فقال له : أيها الكهل ، إني أجلُّك عن الشعر ، فسل حاجتك !

فقال مسلم : تَسْتَتِمُّ اليَدَ<sup>(٢)</sup> عليَّ بأن تستمع ! فأنشده :

دموعُه من حِذارِ البين تنسكبُ      وقلْبُها مُعْرَمٌ من حَرٍّ ما يجبُ  
جَدَّ الرحيلُ بها عنه ففارقه      - لِبَيْنِها - اللهوُ واللذاتُ والطربُ  
هوى الرحيلِ إلى مَرَوْ . فيحزنه      فِرَاقُها فهو ذونَفْسَيْنِ يرتقب<sup>(٣)</sup>

فقال له الفضل : إني لأجلُّك عن الشعر !

فقال له : فأعْنِي بما أَحْبَبْتَ !

فولاه « الفضل » البريد بجُرْجَان<sup>(٤)</sup> .

بل إن الأمير طاهر العلوي حينما قصده المتنبي ليمدحه ، التقاه مسلماً ، وأخذ بيده ، فأجلسه في المرتبة التي كان فيها ، وجلس هو بين يديه ، ثم أنشده المتنبي قصيدته ، فخلع عليه للوقت خلعة نفيسة !

ويقول على بن القاسم الكاتب : كنت حاضراً هذا المجلس ، فما رأيت ولا سمعت : أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب !

وأول القصيدة :

( ١ ) مقدمة ديوان ابن حيوس لخليل مردم - ١٨ .

( ٢ ) اليد : النعمة .

( ٣ ) مرو : كنت أعظم مدن خراسان ، وهما مدينتان : مرو الروز - والنسبة إليها : مروزي - والثانية : مرو الشاهجان .

( ٤ ) معاهد التنصيص - ٢ - ١٣ .

أُعيدوا صباحي فهو عند الكواعب وردوا رقادي فهو لحظ. الحبايب  
ومن مدحه فيها :

هو ابن رسول الله وابن وصيّه وشبّههما ، شبّهت بعد التجارب  
والحق : أننا لا نرى معنى لتمسك بعض الشعراء بالإنشاد قاعداً ، متى  
كان قادراً على القيام ! إلا الزهو السخيف ، والعنجهية الفارغة ! وبخاصة  
إذا كان الإنشاد لدى خليفة من الخلفاء !

والشعر لا يصلح إنشاده من قعود ! فإنّه يذهب بكثير من بهائه وجلاله !  
ولا يستطيع الشاعر مع القعود أن يُسمع الناس كما ينبغي ! كما لا يستطيع أن  
يفتن في إلقائه ، ويكيّف إنشاده وفق حركاته ! !  
ومثل هذا يقال في الخطابة أيضاً .

والشاعر القديم أحقّ باللائمة ، في التمسك بالإنشاد قاعداً ! .  
فإنه كان ينشد شعره أمام الخلفاء والملوك ، وأصحاب الرياسات والأقدار  
ممنّ يستميح جدّواهم ، ويستجدي أعطيّاتهم بمدائحهم ! فهو في طلب  
النّوال بالمديح أكثر ذلّة من الإنشاد قائماً ، إن صح أن في الإنشاد من قيام  
ذلة وضعة !

ولا أرى شبيهاً لمثل هذا الشاعر ، إلا ذلك السائل التركي المنفوخ ، الذي  
كان يقول لمن يطلب منحة منه : حسنة وأنا سيدك ! شحّت سيدك ! لله  
يا أولاد . . .

\* \* \*

وكان البحترى ردىء الإنشاد . قبيح الحركات . وكان إذا أنشد . يختال  
ويعجب بما يأتي به !

وكان من عادته إذا فرغ من القصيدة ، أن يعيد البيت الأول . وقد يعيد  
بيتين من أول القصيدة .

وكثير من شعراء العصر يفعل ذلك . ولا بأس به عندى ؛ فهو استعادة  
لجو القصيدة كلها ، وربط لقطعها بمطلعها ، وإيدان بالفراغ منها .

ويقول جَسْحُظَةُ البرمكى : كان البحرى من أبغض الناس إنشاداً ! يتشادق  
ويتزاور فى مشيته ؛ مرة جانباً ! ومرة القهقرى !

ويهزّ رأسه مرة ! ومنكبّيه أخرى ! ويشير بكمّته ، ويقف عند كل بيت ،  
ويقول : أحسنت والله !

ثم يقبل على السامعين ؛ فيقول : مالكم لا تقولون : أحسنت ؟! هذا والله  
ممّا لا يحسن أحد أن يقول مثله !

وإذا صحّ هذا عن البحرى - وهو صحيح - فإنّ البحرى يستحقّ  
الصفع على ذلك ، ولا يشفع له شعره الحسن الجميل ! فإننا لنشعر بالضيق والحنق  
والغیظ من سماع هذا الكلام ! فكيف بنا إذا رأيناه عياناً بياناً !  
ويقول أبو العنّس الصيّمرى : كنت عند المتوكل - والبحرى ينشده  
قصيدته التى أولها - :

عن أىّ ثغر تبتسمُ      وبأى طرف تحتكمُ  
حسنٌ يضمنُ بحُسْنِهِ      والحسنُ أشبهُ بالكرمِ  
حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفرِ المتوكلِّ بنِ المعتصمِ  
المُجْتَدِى ابنِ المُجْتَدِى      والمُنْعِمِ بنِ المُنتَقِمِ<sup>(١)</sup>  
اسلّمَ لدينِ محمد      فإذا سلّمتَ فقد سلّمِ  
قال : فضجر المتوكل من ذلك ، وأقبل علىّ ، وقال : ألا تسمع يا صيمرى  
ما يقول ؟

فقلت : بلى ، يا سيدى ! ففرنى فيه بما أحببت !  
فقال : بحياتى ! اهْجُئْهُ على هذا الروى الذى أنشدنيهِ !  
فقلت : تأمر ابن حمدون أن يكتب ما أقول !

(١) المجتدى - بفتح الدال - : الذى تطلب منه الجدوى ، وهى العلية . والجادى والمجتدى  
- بكسر الدال - من يسأل الجدوى .

فدعا بدواة وقرطاس ، وحضرني على البديهة أن قلت أبياتاً أولها :  
أدخلتَ رأسك في الرَّحِمِ وعلمت أنك تنهزمُ  
ومنها :

يابن الثَّقيلة والثَّقيل على قلوب ذوى النِّعمِ  
في أى سَدْح تَرْتطم وبأى كَفْ تلتقِم  
فقطع البحرى إنشاده ، وخرج يعدو !  
وجعلت أصيح :

أدخلتَ رأسك في الرَّحِمِ .....  
والمتوكل يضحك ! ويصفق حتى تخلّيت عنه<sup>(١)</sup> !

وأمر المتوكل للصيمرى بالصلة التى للبحرئى فى بعض الروايات .  
وقد ارتاب زميلنا المرحوم الدكتور أحمد بدوى فى صحة ما يرويه الصيمرى ،  
كما شكّ فيما كان يفعله البحرى من حركات زريّة فى إنشاده ، وبالع فى  
الدفاع عنه !  
وأرى أنه لا يمكن تكذيب ذلك ، بعد أن تطابقت الروايات الكثيرة على  
إيراده !

والمتوكل العباسى — بخاصة — كان معروفاً بالانسياط مع جلسائه فى  
حضرتة ، وكانت فيه خفّة وعبث ودعابة ، تجعله يتبدل فى المزاح إلى درجة تنافى  
وقار الخلافة ، وأبهة الملك ! .

هذا إلى أن البحرئى لم يخرج عن المزاج العربى فى الفخر بشعره ، فن  
شيمة العربى الفخر بمناقبه ، ومن أهمّها البيان ، وصدق قائلهم :

..... وأخو المكارم بالفعال فخور

فالعرب — كما يقول الإبيهى — : كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعاً

(١) ديوان البحرئى — ٨١ — معجم الأدباء — ج ١٨ ص ١٣ — ١٤ — أخبار البحرئى

للصول — ٨٨ — ٨٩ — الأغاني — ١٨ — ١٧٣ .

لا تكلّفاً ، وجيلاً لا تعلّمًا ، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ، ولا ينبّه على مناقبهم سواهم .

ويقول الجاحظ : لو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالّجين ، ما وُجد له طالب !

ولمّا أبدع ابن المقفع في رسالته التي سمّاها باليتيمة ؛ تنزيهاً لها عن المِثْل ، سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها ، ولو لم ينحلّها هذا الاسم ، لكانت كسائر رسائله !

فالذى نأخذه على البحترى هذه الحركات المضحكة ، التي تجعله سخرية السامعين في بلاط الخليفة ، لا الفخر بشعره ، فقد كان بعض الشعراء أكثر منه فخراً ، ولم يؤخذ عليهم ذلك .

وكان المتنبي ينشد قاعداً ؛ مقلداً للطيرّ ماح والفرزدق !  
كان يفعل ذلك في بلاط الأمير الحمداني العظيم : سيف الدولة ، متقلداً سيفه !

ويقولون : إنه اشترط عليه : أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد!!  
ولا يكلّف تقبيل الأرض بين يديه ، فنسب إلى الجنون<sup>(١)</sup> !

\* \* \*

وقد قال له بعض الحاضرين : — وقد أخذ ينشد قاعداً قصيدته المشهورة التي مطلعها — :

لكلّ امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا  
لو أنشدتها قائماً لأسمعتها الناس !  
فقال له المتنبي : أما سمعت أولها ؟ يعني قوله :

لكلّ امرئ من دهره ما تعودا .....

يريد : أن هذه عادته ، والعادة لا تتغير !  
وقد أسعفته بديهته بهذا الجواب الموفّق في هذا الموقف الحرج ، الذي

أريد نكايته فيه ، فاستُحْسِن منه ذلك ، وعدّ من بدائعه ! مع أن الجواب غير مقنع وغير سديد ، وإن كان مسكناً !

وصدق مسَلَمَة بن عبد الملك حيث يقول : ما شئ يُوْتَاه العبد — بعد الإيمان بالله — أحبّ إلىّ من جواب حاضر ؛ فإن الجواب إذا كان بَعْدَ نظر وتفكّر لم يك بشئ ! ألم تسمع قوله — تعالى — : « ألم تَرَ إِلَى النَّذَى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ » إلى قوله : « فَبَهَّتَ الَّذِي كَفَر » <sup>(١)</sup> .

ولكن هذا المتكبر المزهو المختال في بلاط الأمير العربي الأريحيّ ، الذي رفع من شأنه ، وأسقط الكلفة معه ، وأعطاه كلّ ما يريد ، حتّى ليقول فيه من هذه القصيدة نفسها :

تركتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ      وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِي بِنُعْمَاكَ عَسْجَدًا  
وَقَيْدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً      وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدًا <sup>(٢)</sup>  
إِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانُ أَيَّامَهُ الْغِنَى      وَكُنْتُ عَلَى بُعْدٍ جَعَلْتُكَ مَوْعِدًا

هذا المتكبر المزهو المختال حين حضر إلى مصر ، بهره البلاط المصريّ الفاخر في عهد كافور الإخشيديّ ، فتطامنت نفسه ، وتواضع كبرياؤه ، وتبخرت مَخِيلَتُهُ ، ونسى « عادته » التي تعودها وجرى عليها واحتجّ بها ! فأنشده كافور قائمًا ، وأنفه في الرّغام !

ويظهر أن كافوراً عجب لذلك التغيّر ، ومخالفة الرسم الذي جرى عليه هذا الشاعر في إنشاد شعره ! فسَلَطَ عليه من يقول له : قد طال وقوفك في مجلس كافور ؛ ليعلم ما عنده .

فكان جوابه أكثر إمعاناً في الضّعة والخضوع ! قال :

يَقْبَلُ لَهُ الْوُقُوفُ عَلَى الرُّعُوسِ      وَبَذَلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ النُّفُوسِ <sup>(٣)</sup>

( ١ ) مختارات من محاضرات الأدباء — ٣٢ — ٣٣ .

( ٢ ) الذرا — بفتح الذال — : فناء الدار ونواحيها .

( ٣ ) الصبح المنبى — ١ — ١١٣ — ١١٤ — التبيان للمكبرى ١ — ٣٦٤ .

وكان دعبل الخزاعي قد مدح الوزير محمد بن الملك الزيّات ، فأنشده ما قال فيه — وهو قاعد — .

فلما فرغ من إنشاده ، أمر له بشيء يسير ! فلم يرضه دعبل فهجاه !<sup>(١)</sup>

\* \* \*

### بين الإنشاء والإنشاد :

وليس كل من ينشئ الشعر ، يحسن إنشاده ! ولله درّ عبد الله بن معاوية أو أحمد بن يوسف حيث يقول :

يُزِينُ الشُّعْرُ أَفْوَاهًا إِذَا نَطَقَتْ      بالشُّعْرِ يَوْمًا وَقَدْ يُزْرَى بِأَفْوَاهِ  
فبعض الشعراء يُحَسِّنُونَ الإنشاد ، كما يحسنون الإنشاء ، فيزيد شعرهم حُسْنًا وجودة ، ويكتسب ملاحه وحلاوة ، وتتضاعف منزلته حين ينشد! وفي مثل هذا يقول البارودي<sup>(٢)</sup> — يصف شعره — :

يزيد على الإنشاد حُسْنًا كَأَنِّي      نَفَقْتُ بِهِ سِحْرًا وَلَيْسَ بِهِ سِحْرُ  
وبعضهم يقبح إنشاؤه وإنشاده ؛ فيكون حقيقًا بقول أبي خليفة — يهجو شاعرًا — :

كَأَنَّ الشُّعْرَ مِنْ فِيهِ إِذَا تَمَّتْ قَوَافِيهِ  
كَنِيفٌ قَدْ خُذِيَ فِيهِ !

وبعضهم يحى شعره وسطًا ، ولكن يجود إنشاده ، فيرتفع شعره إلى الذروة في نفوس مستمعيه ، ويفوق غيره ممّن هم أقوى منه مبنًى ، وأجل معنى وألطف خيالًا ، ويظفر من التصفيق والاستحسان بنصيب الأسد !

إن بعض أصوات الشعراء أشبه شيء بتغريد البلابل ، وبُغَامِ الطّباء ، وهي نعمة موهوبة لا يُؤَدِّي شكرها لواهب المِنَّة ! وقد فسّر بعض العلماء قوله تعالى : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » : بأنه الصوت الحسن ! وما أحسن هذا التفسير !

(١) معاهد التنقيص ١ - ٢٠٣ .

(٢) ديوان البارودي ١ - ١٤٥ (ط ورثته) .

وبعضها لون من خُوار البقر ، ونُهاق الحمير ، ونَغيق الغِربان ، وضَغيب الأَرانب ، وفحيح الأَفاعي ! ومع ذلك فأصحابها أحرص الناس على الإنشاد ، لا يَمنعهم من ذلك كراهة السامعين لهم ، وانصرافهم عنهم ، وسخريتهم منهم ، واستهزاؤهم بهم ، فكأنهم يريدون أن يفضحوا أنفسهم بأنفسهم ! و « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » !

ومثل هؤلاء ؛ بعضُ المغنين قديما وحديثا ! يقول الوزير المهلبى فى المغنى القرشى :

إذا غَنَّائىَ القرشى دعوت الله بالطرش

وإن أبصرت خلقتة فيا لهفى على العمش

ويقول عبدان الخوذى فى مغنية :

لنا قينة تحمى من الشُّرب شَرَبَنَا فقد آمنوا سُكْرًا وخوف حُمار

تكشَّر عن أنيابها فى غنائها فتحكى حمارًا شمَّ بولَ حمار

ويقول آخر :

إنك لو تسمع ألحانه تلك اللواتى ليس يعدوها

لخلت من داخل خلقومه موسوسا يخلق معنوها<sup>(١)</sup>

ويجب أن نعرف : أنه فى أعماق كل صوت جميل ، يثوى عنصر إنسانى

— كما يقول بعض الفلاسفة الغربيين — فالأصوات القاسية البقاء ، تذكرنا بصوت

الإنسان فى حالة الغضب ! والأصوات الرخيمة توقظ فىنا معانى العطف والحب !

وقد كان الأصمعى — كما يقول الجاحظ — حسن الإنشاد والزخرفة لردىء

الأخبار والأشعار ، حتى يحسن عنده القبيح ! وإن الفائدة مع ذلك قليلة !

وكان لذلك يفضل عند الناس « أبا عبيدة » مع أنه لم يكن فى الأرض أعلم

بجميع العلوم من أبى عبيدة !

وقد قبل لأبى نواس : قد بعثوا إلى أبى عبيدة والأصمعى ؛ ليجمعوا بينهما

عند « الرشيد » .



فقال : أما أبو عبيدة ، فإن أمكنوه من شُقَرِه<sup>(١)</sup> ، قرأ عليهم أساطير الأولين !

وأما الأصمعي ، فلبل في قفص يطربهم بنغماته !  
يريد : حسن الإنشاد والزخرفة<sup>(٢)</sup> !

ويقول الربيع بن سليمان — تلميذ الشافعي : سمعت الشافعي — رضى الله عنه — يقول : ما عبر أحد من العرب ، بأحسن من عبارة الأصمعي !

\* \* \*

وبعضهم يجد إنشأؤه إلى الغاية ، ولكنه لا يحسن الإنشاد ؛ ومثل هذا تهبط درجته عند الأوساط من المستمعين ، وإن كان يحتفظ بمكانته عند العلية من الأدباء ! وخير لمثله ألا يتولّى إنشاد شعره بنفسه ! بل يكله إلى غيره ممن يحسن ذلك ، كما كان يفعل كثير من الشعراء القدامى ، وبعض العصرين !  
ومن هذا النوع الشاعر الوصّاف المفلّق « ذو الرمة » صاحب « مية » .

يقول عصمة بن مالك الفزاري<sup>(٣)</sup> : كان ذو الرّمة حلوا العينين ، خفيف العارضين ، برّاق الثّنايا ، واضح الجبين ، حسن الحديث ، ولكنه إذا أنشد ، برّبر ، وجشّ صوتّه<sup>(٤)</sup> !

( ١ ) شقر — بضم ففتح — : الأكاذيب .

( ٢ ) العقد الفريد — ١ — ٢٧٦ .

( ٣ ) ذيل النوادر والأمالى للقالى — ٣ — ١٢٤ .

( ٤ ) البربرة : صوت المعز ، وكثرة الكلام ، والجلبة ، والصياح ، وبربر فهو بربر ،

ودلو بربر : لها صوت . وجشّ صوتّه : غلظ واشتد وبع .

## الفصل السادس

### الشعراء المحيدون للإنشاد

#### في العصر الجاهلي :

أول شاعر عرف بحسن الإنشاد ، وذاعت له فيه شهرة ، وطار له صيت :  
« أعشى قيس » من قبيلة بكر بن وائل من « ربيعة » .  
وقبيلة بكر : قبيلة غنيّة بالشعراء ! وحسبك أن منها الأعشى هذا ،  
وطرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة الشكري ، وهما من أصحاب المعلقات .  
وسويد بن أبي كاهل الشكري .

وجليمة بنت مرة زوجة كليب بن ربيعة التغلبي ، وأخت جساس بن مرة  
قاتل كليب !

ومرّة بن همام بن مرة .  
والحارث بن عبادة الملقب بقاضي العرب .  
والمرقشّان : الأكبر والأصغر .  
وقد سمي الأعشى : صنّاجة العرب ! وكان معاوية بن أبي سفيان يدعوه  
بذلك .

وقد اختلفوا في تعليل هذه التسمية ، فقليل :

لأنه كان يطرب إطراب العرب .

لأنه كان يتغنّى بشعره .

لكثرة ما غنّت العرب في شعره .

لجودة شعره .

لحسن إنشاده ، وقد كانت العرب تقول — لمن يحسن إنشاد الشعر —  
هو صنّاجة الشعر .

لحسن إنشاده وجّهارته ، وجلبة شعره ، حتى كأنك — حين تسمعه — تظن  
أن منشيداً آخر ، ينشد شعره معه !  
لأنه أول من ذكر الصَّنَج في شعره حيث يقول :  
ومستجيبٍ تخال الصَّنَج تسمعه إذا ترجّع فيه القَيْنَةُ الفضل<sup>(١)</sup>

\* \* \*

### في العصر الأموي :

وقد عرف في العصر الأموي بحسن الإنشاد « وضاح اليمن » .  
وقد كان من أجمل الناس وجهاً ، وأظرفهم وأخفّهم شعراً ! .  
وهو القائل في حسن شعره ، وحُسْن إنشاده :

عجِبَ الناس وقالوا : شِعْرُ وضاح اليماني  
إنما شعريَ قَدْ خُلِطَ بِجُلْجُلان<sup>(٢)</sup>  
وفي رواية :

ضحك الناس وقالوا .

يريد : أن شعره في الذوق حلو كالعسل . الذي يخالطه حسن التصويت !

\* \* \*

### عباد العنبري :

وقد قال له الفرزدق — مع تكبّره المفرط : وحسده العميق للشعراء — :  
إنشادك يُزَيِّنُ الشعر في فهمي !

\* \* \*

( ١ ) الصنج — كصبر — : شيء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار  
يضرب بها « معرب » والفضل — بضمّتين — : المتفضل في ثوب واحد ؛ تقوله للمرأة والرجل .  
( ٢ ) القند والقنّدة — بفتح فسكون — والقنديد — بكسر القاف — : عسل قصب السكر إذا  
جمد « معرب » .

والجلجل — بضم الجيمين — : الجرس الصغير . والجلجلان — بضم الجيمين كذلك — : الوتر شد  
فتله . وخلط : ساكنة الطاء ، وهو من تسكين المتحرك ، ولو حرك لاجتمع خمس محركات . وقد  
استشهد به سيبويه في كتابه — العقد الفريد — ٣ — ٤٣٠ .

أبو النجم العجلىّ الرّجاز :

وقد كان من أحسن الناس إنشاداً !

وعن أبي عمر الشيباني ، قال : قال فتيان من « عجل » لأبي النجم العجلى : هذا رؤبة بالمربد يجلس فيسمع شعره ، وينشد الناس ، ويجتمع إليه فتيان بني تميم !

فقال : أو تحبون هذا ؟ .

قالوا : نعم .

قال : فأتوني بشيء من نبيد !

فأتوه به !

فلما رآه رؤبة أعظمه ! وقام له عن مكانه ، وقال : هذا رجّاز العرب !

ثم سأله أن ينشدهم فأنشدهم :

الحمد لله العليّ الأجلّ . . . . .

فلما فرغ منها — مع حسن إنشاده — قال له رؤبة : هذا أتمّ الرجز !

\* \* \*

في العصر العباسي :

وقد عرف فيه أبو نواس .

قيل للجاحظ : من أنشد الناس ، ومن أشعرهم ؟

فقال : الذي يقول :

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَنَ مِنْ أَزْوَارِهِ قَمَرًا

يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

بَعِينٍ خَالِطِ التَّفْتِيرِ مِنْ أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا

وَوَجْهَهُ سَابِرٌ لَوْ تَصَوَّبَ مَاؤُهُ قَطْرًا<sup>(١)</sup>

يعنى : أبا نواس :

(١) السابري : ثوب رقيق جداً . وتصوب ماؤه : سال من عل .

### محمد البندق :

وكان رجلا حسن الصوت ؛ ينشد الشعر ، ويضطرب بحسن صوته أشدّ  
من طرب الغناء !

وقد كان في زمن الرشيد .

ويحدث البندق عن نفسه قائلا : دخلت على الرشيد — وعنده الفضل بن  
الربيع ، ويزيد بن مزيد — وبين يديه خوان لطيف عليه رغبان من سميذ ،  
ودجاجة .

فقال لي : أنشدني .

قال : فأنشدته قصيدة أبي منصور النّمريّ العيّنيّة .

فلما بلغت إلى قوله :

أى امرئ بات من هارونَ في سَخَطٍ . فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ  
أرى المكارمَ والمعروفَ أوديةً أحلكَ الله منها حيثُ يتسعُ  
إذا رفعتَ امرأً فاللهُ يرفعه ومن وضعتَ من الأَقوامِ يتّضعُ  
نفسى فداوكِ والأبطالَ مُعلّمةً يومَ الوغى والمنايا صابها فزعُ  
فرمى الرشيد بالخِوان بين يديّ ! وصاح : هذا والله أطيّب من كل طعام ،  
وكل شيء !

وبعث إلى النّمريّ بسبعة آلاف دينار !

قال البندق : فلم يعطني النّمريّ منها ما يرضيني ، وسافر إلى « رأى العين »  
فأغضبني وأحفظني !

فأنشدت الرشيد قوله :

سَاد من الناس راتِعٌ هَامِلٌ يَعْلَمُونَ النفوسَ بالباطلِ  
تُقْتَلُ ذريةُ النّبِيّ وترجو ن خلودَ الجنان للقاتلِ

فلما بلغت إلى قوله :

ألا مساعيرَ يغضبون لها بسلة البيض والقنا الذابلُ

قال الرشيد : أراه يحرض على ! ابعثوا من يحجىء برأسه !  
فشفع فيه الفضل بن الربيع ، فلم يُغن كلامه شيئاً ! وتوجه إليه رسول  
الرشيد . فوفاه في اليوم الذي مات فيه ، ودفن ووُورى التراب !  
فأمر بنبشه ليحرقه ! .  
فلم يزل الفضل يلطّف له حتى كف عنه !

\* \* \*

أبو سعيد الخزوي :

وقد دخل إلى إسحاق بن إبراهيم المصعبيّ ؛ فأنشده قصيدة أبدع في  
إلقائها !

ثم دخل إليه أبو تمام ، فأنشده — على رداة إنشاده — !  
فقال المصعبيّ : يا أبا تمام ، لو رأيت الخزويّ وقد أنشدنا آنفا !  
فقال أبو تمام : أيها الأمير ، نشيد الخزويّ يُطرق<sup>(١)</sup> بين يدي شعره !  
وشعري يطرق بين يديّ نشيدي !

\* \* \*

وفي الأندلس :

وقد عرف في الأندلس ابن زيدون .  
وقد كان رقيق النخمة ، حلو الإنشاد ! وكان لذلك أثره في تجميل شعره !

---

( ١ ) يطرق — بتشديد الراء المكسورة — : أى يجعل له طريقاً ويمهد لقبوله ؛ يريد أبو تمام :  
أن إنشاد الخزوي أفضل من شعره فهو يشفع له ! وأن شعره — أى شعر أبي تمام — خير من إنشاده ،  
فهو يشفع له أيضاً !  
والخلاصة : أن أبا تمام أفضل شعراً من الخزوي وأردأ إنشاداً ، والخزوي أفضل إنشاداً وأردأ  
شعراً ، والحسن في كل منهما يغطي على عيبه الآخر .

ولهذا يقول ابن حصن - يصف أشعاره ، ويعرّض بابن زيدون : بأنه يعتمد على حسن الصوت - :

ولستُ بكاسيها مدى الدهر حليةً      بنعمة إنشادٍ ولا بمكرّر

وهذا تحامل من ابن حصن على ابن زيدون ! فابن زيدون لا تنكر حلاوة شعره ، وجمال ديباجته ! ورقة معانيه ، حتى لقب ببحتري المغرب ! وهو حقيق بهذا اللقب !

فإذا رزق بعد هذا جمال الصوت ، وحسن التنغيم ، وملاحة الأداء ، فقد حاز النعمتين ، وجمع بين الحُسْنَيْنِ ! ولا يذم بمثل هذا ، أويغاب عليه ، بل يمدح كما يمدح الإنسان بالأوصاف الطبيعية ، كجهازة المنظر ، وحسن الوجه ، وكمال الجسم ، فبيت ابن حصن خَلُفَ من القول ! وقد جانبه التوفيق فيه ، وما حمله عليه إلا الحسد لابن زيدون على موهبة الإلقاء ، ولطافة النبر ، فغمطه حقه ، وبخسه مزيّته ، وقد يما قال المتنبي :

بذى الغباوة من إنشادها ضررٌ      كما تضرّ رياحُ الورد بالجعل

وقال مهيّار :

يُطْرِبه البيتُ - وهو يَحْزُنُه -      ومن أنين الحمامة الطَّربُ

وفى معنى بيت ابن حصن ، يقول المعري <sup>(١)</sup> :

إذا الناسُ حلّوا شعرهم بنشيدهم      فدونك منى كل حسناء عاطل  
ومن كان يستدعى الجمال بحليةٍ      أضرب به فقد البرى والسَّلاسِلُ <sup>(٢)</sup>

يقول التبريزي فى معناهما : أراد : أن قصيدته أنفذها إلى ممدوحه ، ولم ينشده إيّاها .

(١) شرح سقط الزند القسم الثالث - ١٠٨١ - ١٠٨٢ - ١٠٨٣ .

(٢) البرى - بضم ففتح - : الخلاخل .

ويقول : يريد إذا زين الشعراء شعرهم بالإنشاد ، فاكثف منى بالإنشاء لأن شعرى يستغنى عن زينة الإنشاد !

ويقول البساطليوسى : يريد : من كان شعره لا يحسن إلا بأن ينشده ، فإن تركه الإنشاد مضر بشعره ، كما أن المرأة التى ليس لها جمال إلا بالزينة يضرها ترك الزينة ، وأما من كان شعره حسناً بنفسه ، فليس يخل به ألا يحسنه بإنشاده ، كما أن المرأة الحسناء بنفسها ، غنيّة عن استعمال الزينة ؛ كما قال ابن الرومى :

وَأَنقُ مِنْ حَلَى الْعَقِيلَةِ جِيدُهَا وَأَحْسَنَ مِنْ سِرْبِهَا الْمُتَجَرَّدُ<sup>(١)</sup>  
وفرق بين قول ابن حصن وأبى العلاء : لأن أبا العلاء يفخر بحسن شعره ؛ وأنه كالغانية الغنية بجمالها الطبيعى عن الزينة ، فهو محض فخر . وليس فيه تعريض بأحد معيّن ! هذا إلى أن أبا العلاء كان لا يرحل بشعره إلى الآفاق ، ليمدح الرؤساء ، ويستجدى عطاياهم كابن حصن . ويزاحم غيره على أبوابهم ! ومهما يكن فقد مضى قولنا : ما دام يراد من الشعر إنشاده ، فإن الإنشاد الحسن ، يزيد فى حسنه إن كان حسناً ، ويمنحه بعض الحسن إن كان غير حسن ، وغير ذلك ضرب من التجاهل والمغالطة والمكابرة !  
أما الشعر المقروء فالحكم فيه غير ذلك .

\* \* \*

### فى العصر الحديث :

وفى العصر الحديث ، عُرِفَ جم غفير من الشعراء بحسن الإنشاد ، منهم : حافظ إبراهيم ، ومحمد عبد المطلب ، وعلى الجارم ، وأحمد الزين ، ورمزى نظيم ، ومحمد الأسمر ، ومحمد حمام — نضّر الله ثراهم ، وتغمدهم برحمته ورضوانه ! —

(١) المتجرد — بفتح الراء المشددة — مصدر بمعنى التجرد ؛ تقول : هى بضة المتجرد : أى هى بضته عند التجرد ، وإذا كسرت الراء : أردت الجسم ، وهو المراد هنا فى هذا البيت .



### حافظ إبراهيم :

وقد كان « حافظ » مديد النَّفَس ، جهير الصوت ، يُحسن إخراج الحروف من مخارجها ، ويعرف أين يقف ؟ وكيف يقف ؟ ومتى يجهر ؟ ومتى يهمس ؟ ويدري الفرق بين مواضع الخبر ، ومواضع الإنشاء ! وقد ساعده على ذلك كثرة محفظة من التراث البليغ الفصيح ، وتدريبه على إلقائه في مجالسه الخاصة ، وحبّه للقاء الجماهير ، وأنسه برؤيتهم ، وتعاطفه معهم ، وعدم الإجفال منهم !

هذا إلى أنه كان كابن الحيات الدمشقيّ ، يستظهر شعره كله ، ويمارس إنشاده منفرداً قبل إنشاده أمام الشهود ، ويلقيه عن ظهر قلب ! كما أن أذنه الموسيقية المرهفة ، كانت خير هاد له على تكييف الجهر والهمس ، والصعود والهبوط ! . ومع أن صوته لم يكن ذا رنين جميل ، بل كان أجشّ غليظاً ، فقد كان قوياً جَهْورِيّاً محبوباً ، يثير حماسة السامعين وأطربهم وانفعالهم !

وفيه يقول الأستاذ الشاعر المرحوم محمود عماد في حفل مهرجانه (١) :

فيسحَرنا	شعره	آنة	وآونة	صوته	يسحَر
لقد قرَّ حافظُ	في صوته	فما شئت	تسمع أو تُبصر		
إذا ما سمعناه	من خَلْفِ سِتْرٍ	رأيناه	ما بيننا	يخطر	
فجَهْمًا غليظًا	إذا جدَّ قولُ	ونضراً	وسيمًا	متى يهدِرُ (٢)	
ولو أنهم	خلدوا	صوته	«بحاك»	لأنَّه لدوا	يداً تُشكر
وما	خلدوه	ولكنهم	أضاعوه	فالدُّنْب	لا يُغفر

\* \* \*

وقد كان العقاد — رضوان الله عليه — يقول لحافظ — حين يسمع إنشاده — :

سجِّلْ شعرك في اسطوانات !

(١) ديوان عماد - ١١٧ .

(٢) هدير الحمام : صوته ، وهدر الحمام : صوت .

### عبد المطلب :

وكان عبد المطلب في شعره البدوي ، وسمته البدوي ، وصوته البدوي ،  
ولباسه البدوي — حين يلبس الكوفية والعقال — يخيل إليك أنك تسمع شاعراً  
من الأعراب الأقحاح : وفد إلينا من أجواز الصحراء ! فتمتلئ منه روعة  
وإعجاباً !

\* \* \*

### على الجارم :

وكان الجارم أندى صوتاً من « حافظ » و « عبد المطلب » وأحلى نغمة ،  
وأعذب ترنماً !  
وكان يتخيل ويتمايل ويتزايل في إنشاد شعره ! فكان أشبه بالمثل منه  
بالمشدد ! وبخاصة في أساليب التعجب والاستفهام ! والوقوف على مقاطع  
الكلام !

وكان مالكا لنفسه ، شديد الثقة بها ، عارفاً أنه سيسيطر على السامعين  
بحسن أدائه ! فكان ذلك يُظهر منه العجب والخيلة ! كما كان يضيف عليه  
شجاعة وجراءة ، فلا يتلثم ولا يتوقف ولا يضطرب ، كأنما ينشد لنفسه ! .  
وقد ظل محتفظاً بهذه السمات حتى أيامه الأخيرة ، وإن ضعف صوته  
قليلاً ، وفقد بعض رنينه !

\* \* \*

### محمد الأسمر :

وقد كان الأسمر مجيداً للإلقاء ، محسناً للأداء ، مبدعاً في تلوين صوته ،  
عارفاً بمواقع الفصل والوصل ، حاذقاً في الوقوف على حروف الروى !  
وقد أعانه على ذلك : أنه كان يتدرّب على إلقاء ما ينشده ، وهو واقف  
كأنما ينشده بالفعل . بل كان أكثر ما ينشئ الشعر وهو واقف أيضاً ، وللشعراء  
في إنشائهم مذاهب !

وقد كان لأناقته الملحوظة ، وتفصيل « جبهته وقفطانه » على نمط خاص ،  
ولوث عمامته على شكل معين ، وهز رأسه عقب انتهائه من كل بيت ،  
تأثير ساحر في النفوس ! ولا سيما نفوس الجنس اللطيف !

\* \* \*

### أبو الوفاء رمزي نظم :

وكان أبو الوفاء محمود رمزي نظم ، ينشد بصوت مؤثر ، يعرب عن وجدان  
ديني ، وعاطفة صوفية عميقة ، وقلب عامر ببشاشة الإيمان ! فكان لأدائه  
الصوتي ، المطابق لأدائه النفسى ، أبلغ الأثر في السامعين !  
وكان زر طربوشه الأحمر الذى كان يحافظ على لبسه دائماً ، يتحرك في  
أثناء إلقائه يمنة ويسرة ؛ تحرك بندول الساعة ! كأنما يأبى إلا أن يشركه في  
انفعاله العاطفي !

\* \* \*

### محمد حمام :

وكان محمد حمام في إنشاده فكهاً ظريفاً، مؤنساً ممتعاً ، عذب النفس ،  
خفيف الروح ، لا يُسَمَل ولا يُسَام ، متجاوباً مع الحضور ، كأنما يتحدث  
إليهم بحكاياته ونوادره ، ونكاته المطربة ! فهو كحافظ شاعر لبق ، ومحدث  
ألبق ، يستقبله السامعون ، كما يستقبلون تحفة ظريفة شائقة ، تملأ نفوسهم سروراً  
وبهجة ، وتسرى عنهم هموم الحياة ، وأثقال العيش !  
أما كامل الشنّاوى ، وأحمد عبد المجيد الغزالي ، والشاعر المُخْتَصَر  
« هاشم الرفاعى » ، فكانوا بلابل مغردة ، وقمارى شادية ! وأوتاراً مرنّمة !

\* \* \*

ومعظم شعرائنا الأحياء — نساً الله في أعمارهم — يجيدون الإنشاد ، وقد  
ظاهرهم على ذلك كثرة مُعَانَاتِهِمْ لإلقاء الشعر في الأنديات الأدبية الكثيرة ،  
وتنافسهم في جمال الإلقاء ، حتى يفوزوا بتقدير المستمعين ! وفي ذلك فليتنافس  
المتنافسون !

ونضرب عن ذكرهم صفحاً ؛ لكثرة عددهم ، وإشفاقاً من إغفال بعضهم سهواً ، فيلحقنا اللوم أو العتاب ! ونحن لا نحتمل لومهم ولا عتابهم ! ونكتفي بذكر اثنين منهم :

أحدهم : انزوى تحت وطأة السنّ والمرض — شفاه الله وعافاه<sup>(١)</sup> ! — حتى كاد ينسى مع الأسف في بلد قال فيه « شوقي » — وقد صدق في قوله — :  
 نُسِيَتْ رَوْعَتُهُ فِي بِلَدٍ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ يُنْسَى بَعْدَ حِينٍ  
 وهو شاعر الوفاء ، وصاحب ديوان « الوفاء » الأستاذ « بولس غانم » .  
 وبولس غانم لبناني الأصل ، ذو غنّة واضحة محببة ! وهو لا ينشد شعره كما ينشده الناس ، وإنما يتغنى به حقيقة ، ويلقيه على شكل غمغمات مستطيلة ، مصحوبة بهزّ رأسه ، وإمالة عنقه ، وترنيح عطفه ، كما يفعل الصوفية في حلقات الأذكار !

وأحسب أن الأعشى كان يصنع مثل ذلك ؛ فإذا صحّ حدّسى ، فالشاعر « بولس غانم » صنو الأعشى ، وصنّاجة الشعر في العصر الحديث ، وأجدر الشعراء « أن يلقّب بالشاعر المغنّى أو المغرّد أو المطرّب » إلى غير ذلك .

والشاعر الآخر كلُّ إخوانه يسلمون له بموهبة الإنشاد ، وهو « عبد الله شمس الدين » .

ويدعونه « الشاعر الرهيب »<sup>(٢)</sup> لضخامة جسمه ، وفخامة منظره ، وفحولة صوته ، وامتداده إلى أبعد غاية نعرفها ! وأنا أدعوه لكل ذلك « دبّابة الشعراء » !  
 وفي الحق : أن صوت عبد الله شمس الدين يوازي عدة أصوات مجتمعة ، وهو يسير في إنشاد شعره على قاعدة نفسيّة — وإن لم يتعمّد ذلك — كما كان يفعل الحجاج الثقفي في خطبه الصاعدة !

( ١ ) كان حيا وقت تأليف الكتاب .

( ٢ ) الرهيب : لم أجدها في المعجمات اللغوية ، ووجدتهم يقولون : الراهب والمرهوب ، ويوصف بهما الأسد ، كما سمو راهباً ومرهباً .

فيبدأ إنشاده بصوت خفيض ، كأنّما يستدرج الناس إلى الإصغاء :  
 حتى إذا ألقوا إليه بأسماعهم ، أخذ يزجر ويهمهم ويزار ! مطبقاً جفنيه ،  
 حيناً ، مصوباً نظره مرة ، ومصعداً له أخرى ! ضارباً بيديه العَبْلَتَيْنِ في الهواء !  
 كمن يصارع شبحاً منظوراً له وحده ! فيسحر أعين النَّظَّارة ويسترهبهم ،  
 ولا تزال أبصارهم معقودة بعينيه التي لا يرى إلا بياضهما ، وأذانهم منشورة  
 لالتقاط كلماته ، حتى يفرغ من إنشاده ! وكأنّهم أمام فارس من فرسان  
 الصَّوْل ، لا فارس من فرسان القول !

وعبد الله شمس الدين يعرف جيداً ما أوتي من إلقاء « رهيب » كملقيّه ،  
 فيؤثر ألاّ يطيل قصائده ، حتى لا يطيل إنشاده ، رحمة بنفسه وبمستمعيه !  
 وأشهد أنني ما رأيته قطّ ينشد إلا ذكرت قول الشاعر :

جهيرُ الكلام جهيرُ العُطاس      جهيرُ الرّواء جهيرُ النّغمِ  
 ويخطو على الأيّن خطو الظّليم      ويعلو الرجال بخلق عمم<sup>(١)</sup>

وما يجب التنبيه له : أن هذه الثورة الباطنية ، لها تأثيرها في الصوت ، نحسّ  
 ذلك في أنفسنا ، ونلاحظه في غيرنا .

فدرجة الأصوات في الحدة والضخامة ، تكون مناسبة لقوة الشعور المعبر  
 عنه ؛ فالإنسان في حال الانفعال ، إما أن يغلبه السكون ؛ أو يتكلم بلغة  
 يضمحلّ فيها الصوت ، ويقطّعها التّرجيع ، وتتباين نبراتهما في جرّس الأصوات  
 واتقاده<sup>(٢)</sup> !

\* \* \*

#### شواعر مصر :

وعندنا بمصر شواعر محسنات في الإنشاد ، لكلّ منهنّ إلقاء خاصّ عرفت به وعرّفت  
 بها ! ولكن يؤلف بينهنّ جميعاً ، نداوة الصوت ، وعدوبة الإيقاع ، وحلاوة النغم ! .

(١) الأين - كمين - التعب . والعيم - كسب - : التام العظيم .

(٢) خواطر الخيال - ١ - ٢٢ .

ومن المسلم به : أن الأنوثة الرقيقة ، تخلق من الصوت الحشن صوتاً رقيقاً مُستساغاً ، فما الظن إذا كان الصوت رقيقاً بطبعه ، وكان الشعر مُستجاداً !

وإنه ليعجبني في ذلك قول المازني — رحمه الله — تحت عنوان «إنشاد الشاعر شعره» :

وَرُبَّ فَتَاةٍ يَمْلِكُ الطَّرْفُ حُسْنَهَا      تُغْنِي بِشَعْرِ مُسْتَرَتْ فَتَطْرِبُ  
كَمِثْمِهِ مِنَ الصَّوْتِ الْأَنِيقِ حَلَاوَةً      فَعَادَ نَضِيرَ النَّوْرِ يُصْبِي وَيُعْجِبُ (٢)  
وَنَابَتْ إِلَيْهِ رَوْحُهُ وَتَضَوَّعَتْ      نِسَائِمٌ فِي بَوَائِهَا نَتَقَلَّبُ (٣)  
فَكُلَّ فَوَادٍ فِي نَعِيمٍ وَلَذَّةٍ      وَقَدْ يَمْكُرُ الصَّوْتُ النَّدَى وَيَكْذِبُ  
وَلَكِنَّهُ مَكَرَ شَيْءٍ إِلَى النُّهَى      خَفِيفٌ كَمَا شَاءَ الْجَمَالَ مُحَبَّبُ  
وما أجمل ما قاله صديقنا الشاعر الكبير محمود غنيم في نطاق هذا المعنى —  
تحت عنوان ، « شاعرة » — (٤) :

كَاعْبٍ جَرَّتْ ذِيُولُ الْأَدَبِ      وَتَغْنَتْ بِقَرِيضِ الْعَرَبِ  
يَأْسُنُ الشُّعْرُ فَإِنْ مَرَّ عَلَى      فَمَهَا عَادَ بِنَفْحِ طَيْبِ (٥)  
تَخْرُجُ الْأَلْفَاظُ مُعْدَوْدِبَةً      مِنْ فَمٍ حُلُوِ اللَّحْمَى مُعْدَوْدِبُ  
دُرَّرَ خَارِجَةٌ مِنْ دُرَرٍ      تِلْكَ لَمْ تُثَقِّبْ وَذِي لَمْ تُثَقِّبِ  
إِنْ خَسِرَا كَأْسُهَا مِنْ خَزَفٍ      غَيْرُ خَمَرٍ كَأْسُهَا مِنْ ذَهَبِ  
شَدَّ مَا يَأْسِرُ لُبِّي قَلَمٌ      مُرْهَفٌ فِي أَنْمَلٍ مُخْتَضِبِ

(١) ديوان المازني (ط المجلس الأعلى) .

(٢) النور — بفتح فسكون — : الزهر الأبيض ، وأما الأصفر فزهر .

(٣) البوغاء — بفتح فسكون — : رائحة الطيب .

(٤) صرخة في واد — ١٦٠ .

(٥) أسن الماء : تغير لونه وطعمه ، والفعل من باب ضرب ودخل وطرب فهو آسن ، ومثله

يا رعى الله قَوَاماً لَيْنًا      يَنْحِنِي كَالْقَوْسِ خَلْفَ الْمَكْتَبِ  
ويميناً بَضْصَةً نَاعِمَةً      خُلِقْتُ لِلجِدِّ لَا لِلْعِبِ  
طَبَعَ النَّفْسُ عَلَيْهَا شَامَةً      كَالَّتِي فِي خَدِّهَا الْمَلْتَهَبُ<sup>(١)</sup>  
أَنَّ فِي مِعْصَمِهَا مِرْقَمَهَا      كَأَنِّي الْعَاشِقُ الْمُكْتَتِبِ  
وَحَى بَيْنَ يَدَيْهَا رَأْسَهُ      كَانْحِنَاءِ السَّاجِدِ الْمُقْتَرِبِ

\* \* \*

غَادَةً مَرَاتُهَا إِنْ نَظَرْتُ      صَفْحَةً مِنْ صَفَحَاتِ الْكُتُبِ  
يَا إِلَهَ الشُّعْرِ بَارِكْهَا إِذَا      سَبَحْتُ فِي مَوْجِهِ الْمُصْطَخِبِ  
احْفَظِ الْهَيْفَاءَ مِنْ تَيَّارِهِ      لَيْسَ بِحَرِّ الشُّعْرِ سَهْلَ الْمَرْكَبِ  
يَافِتَاةَ الْخِذْرِ عَوَّذْتُكَ مِنْ      سَهْرِ اللَّيْلِ وَنَجْوَى الشُّهْبِ  
وَشُرُودِ الْفِكْرِ فِي جُنْحِ الدُّجَى      وَهَرُوبِ اللَّفْظِ عِنْدَ الطَّلَبِ  
اتْرَكِي جَفْنَكَ يَنْفُثُ سِحْرَهُ      فِي خَيَالِي وَقَفِي عَنْ كَثَبِ  
لَا تَقُولِي الشُّعْرَ بَلْ أَوْحِي بِهِ      أَنْتِ خِصْبُ الْخِيَالِ الْمُجْدِبِ  
إِنَّمَا الشُّعْرُ «مَحِيطٌ» فَاسْلَمِي      وَدَعِي أَمْوَاجَهُ تَقْذِفُ بِي  
إِنَّهُ عِبْدٌ عَلَى حَامِلِهِ      مَا لِهَذَا الْعِبْدِ إِلَّا مَنَكِبِي

\* \* \*

### شعراء وشواعر سورية :

ومن شعراء الشقيقات العربيات الذين سمعتهن ، وهزّني إنشادهن : الشاعر السوري  
الدمشقي الكبير « شفيق جبري » .

(١) القس - بكر فسكون - : الخير : والشامة : الخال .

(٢) المرقم - كعصم - : القلم .

وهو—على تقدّمه في السن—يتمتع بشباب ينضح على جسمه ووجهه ولونه، ويلقى شعره بصوت جهّورٍيّ مُجَلِّجِلٍ ، وأداء فخم مؤثّر، يهزّ المحفل هزّاً !  
وقد أنشد في بعض مهارج الشعر بدمشق قصيدة « بطولات العرب » وهي تناهز مائة بيت، لم يضعف فيها ولم يفتّر، بل ألقى آخر بيت منها بنفس الصوت الذي بدأها به !

ومن الشواعر اللواتي سمعتهنّ وأعجبت بشعرهن وإنشادهن : الدكتورة « طلعت الرفاعي » و « عزيزة هارون » و « هند هارون » و « نبيهة حداد » .  
وقد جاء في وصف « عزيزة هارون » هذه الكلمة : شاعرة مهيّبة وديعة عالية التربية الاجتماعية ، نشأت في بيئة ممتازة ، خلعت عليها كل صفات الامتياز ، أنيقة حسّاً ومعنى ! أنيقة في صورتها وهندامها وكلامها، وفي كل ما يجب أن يكون أنيقاً في حواء !

وهي بجمالها الفاتن ، وبياضها الناصع ، واستدارة وجهها القسميم الوسيم ، وعينيها الخضراوين النجلاوين ، وشعرها الفينان المتموّج، تعدّ من ملكات الجمال ، وتمثّل تمثيلاً صادقاً جمال الجزء الشمالي من سورية، الذي تلقّح فيه الدم العربيّ الأصيل بدماء أخرى ، فأثّر نوعاً من الحسن والملاحة والصبّاحة ربما كانت النموذج الأعلى لمفاتن الجنس اللطيف !

ولو أن اليازجي تأخر به الزّمان ، ورأى « عزيزة » لقلنا : إنه يعينها بقوله :

عزيزة قوم حبّها قد أدلّني نَعَمْ كلُّ من يهوى الحسان ذليلُ

إنّ أنوثة رقيقة ، مع جمال باهر ، مع شاعرية خصبة ، مع صوت هامس رخيم ، يساوي قبلة هدرجينية ، وكذلك عزيزة هارون !

وهي عضو بلجنة الشعر بسورية ، ولها مكانة مرموقة في الأوساط الاجتماعية والأدبيّة<sup>(١)</sup> !



ووصفها الأستاذ الدكتور « شكري فيصل » الأستاذ بالجامعة السورية في « جريدة الأيام » فقال : أناقة من كل وجه ! أناقة في المظهر والمخبر ! أناقة في اللفظ ! وأناقة في المعنى ! وأناقة خاصة في الإلقاء ! ويتخلل ذلك عاطفة ناثرة ، وراء الألفاظ الهادئة ! ! في النار ولا تحترق هذه الفراشة الملوّنة ! دائماً تجدد خلْقاً بعد خلق ! لقد أرادت أن تمزج بين ذاتها الداخلية وذاتها القومية في تناغم موفق ! إنها كانت في المهرجان صوتاً مشرفاً ! وهي تقع في دنيا الشعر في كثير من المرات ، على ما لا يقع عليه أكثر الشعراء من دقائق اللَّمَح ! وفي هذه الدقائق يبلغ شعرها الذّروة ، ومن إحساسها العميق يكون انطلاقها<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وجاء في وصف الدكتورة « طلعت الرفاعي » هذه الكلمة : إن من يشاهدها — وهي تنشد شعرها — لا يشكّ في أن للشعراء شياطين تلهمهم ، كما كان يزعم السابقون ، ويعتقد بصفة خاصة : أن روحاً من الأرواح تنقمصها ، وتنفت في رُوعها ، وتنطق عن لسانها !

إنها لا تكاد تبدأ في شدوها ، حتى يزهر وجهها ، ويتوهج خدّاها ، وتذبّل عيناها ، وتغمض نصف اغماضة ، وتبدو كأنها تعاني حرّقاً مبرّحة ، وألاماً دفينه ، فيضاعف ذلك من فتونها ، ويبعث شفقتك وعطفك عليها !

وهي في أثناء ذلك تميل برأسها يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وأماماً وخلفاً ، في حركات رشيقة راتبة متزّنة ، وتنقلّ يديها ذات اليمين وذات الشمال ، متابعة لحركات رأسها ، كل ذلك موقع على صوتها الموسيقي الرخيم الذي يشبه بُغام الأطباء !

وعند نهاية كل بيت ، ترمي السّامعين بنظرات ساهمة حاملة من طرفها الغضبيّض ، يقطعها وميض ابتساماتها الوضيئة ، التي لا تشك في أنها تصدر تلقائياً دون وعي !

وقد صرّحتْ عَهِى : بأنّها فى هذه الحال تكون فى شبه حلم ، وهذا ما أقطع به !

وقد كان يخيّل إلينا حينما تَجيش وتضطرم ، فيكتسى وجهها صبغة الورد : أنها توشك أن تحترق ، فتنمى — مع لفتنا على سماعها — لو أنها كفّت عن الإنشاد !

وقد جاء فيها من الشعر ما يلى :

يُغْنِي	فِيحْتَازَ الْعُقُولَ وَيَسْلُبُ	غَلِبْتُ عَلَى أَمْرِ بِلْبَلٍ أَيْكَةٍ
فَمِنْ لَحْظِهِ أَوْ لَفْظِهِ أَنْتَ تَشْرَبُ	يُعَاطِيكَ ! خَمْرًا طَرَفُهُ وَبَيَانُهُ	إِذَا مَا شَدَا شِعْرًا تَرَاعَيْتَ وَجْهَهُ
يُنْفَضُّ أَحْيَانًا وَحِينًا يُذْهَبُ	وَوَقْدَ حِجَاهُ أَذَّهُ يَتَلَهَّبُ	فَتَسْخَى عَلَيْهِ مِنْ تَوَهُجِ رُوحِهِ
يَنْفِيضُ عَلَيْهِ بِاللُّحُونِ وَيَهْضِبُ <sup>(١)</sup>	حُضُورًا وَهُمْ مِنْ نَشْمَةِ الرَّاحِ غَيْبُ	كَأَنَّ لَهُ مِنْ جَنِّ عَبَقَرٍ صَاحِبًا
يُغْنِيهِ أَلْحَانًا جَمَالُ مُهَذَّبُ		تَرَى النَّاسَ سَكْرَى حَوْلَهُ وَهُوَ مُنْشِدُ
		وَأَفْتَنُ فَتَانَ قَرِيضُ مُهَذَّبُ

## الفصل السابع

شعراء لا ينشدون !

أو كانوا ينشدون ، وكفوا عن الإنشاد !

قدّمنا : أن الأصل أن ينشد الشاعر شعره ، إلاّ أن يحول دون ذلك حائلٌ ما .

والناظر في أخبار الشعراء ، يجد أنه لم يخل عصر من شعراء نابهين مجوّدين في إنشاء الشعر ، ولكنهم قعدوا عن إنشاد شعرهم لسبب من الأسباب ، كآفة لسانية ، أو كبر السن ، أو الحياء ، أو الكبرياء ، أو غير ذلك .  
من هؤلاء الشعراء :

أبو عطاء السندی :

وكانت في لسانه عُجْمة شديدة ، ولُثْغة جعلتاه لا يكاد يبين ! مع بديهة جيدة ، وعارضة قوية !

وهو من مخضري الدّولتين الأمويّة والعبّاسية .

وقد قصد أبو عطاء سليمان بن سُلَيْم الكِلَابِيّ ، يشكو إليه حاله ، وما يلاقيه من الضيق والكرب لذلك ، فأنشده قوله :

أَعُوْزَتْنِي الرُّوْاةُ يا بنِ سُلَيْمٍ      وَأَبَى أَنْ يُقِيمَ شِعْرِي لِسَانِي  
وَعَلَى بِالَّذِي أَجْمَعُ صَدْرِي      وجفائي - لِعُجْمَتِي - سلطانِي<sup>(١)</sup>

---

(١) جعجج الرجل وتجمعج : إذا لم يبين كلامه .

وَاذْكَرْتَنِي الْعَيُونَ إِذْ كَانَ لُونِي      حَالِكاً مُجْتَوًى مِنَ الْأَلْوَانِ<sup>(١)</sup>  
 فَضْرِبْتَ الْأُمُورَ ظَهراً لِبَطْنِ      كَيْفَ أَحْتَالَ حِيلَةً لِلْسَانِ<sup>(٢)</sup>  
 وَتَمَنَّيْتُ أَنَّنِي كُنْتُ بِالشُّعْرِ      فَصِيحاً وَبَانَ بَعْضُ بَنَانِي<sup>(٣)</sup>  
 ثُمَّ أَصْبَحْتُ قَدْ أَنْخْتُ رِكَابِي      عِنْدَ رَحْبِ الْفِنَاءِ وَالْأَعْطَانِ<sup>(٤)</sup>  
 فَاكْفَنِي مَا يَضِيقُ عَنْهُ رُوَانِي      بِفَصِيحٍ مِنْ صَالِحِي الْغِلْمَانِ  
 يَفْهَمُ النَّاسُ مَا أَقُولُ مِنَ الشُّعْرِ      فَإِنَّ الْبَيَانَ قَدْ أَغْيَانِي  
 وَاعْتَمَدَنِي بِالشُّكْرِ يَا بَنَ سَلِيمٍ      فِي بِلَادِي وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ  
 سَتَوْافِيهِمْ قَصَائِدُ غُرٍّ      فَيَاكَ سِبَاقَةَ بِكَلِّ لِسَانِ  
 فَقَدِيمًا جَعَلْتُ شُكْرِي جَزَاءً      كُلُّ ذِي نِعْمَةٍ بِمَا أَوْلَانِي  
 لَمْ تَزَلْ تَشْتَرِي الْمَحَامِدَ قِدْماً      بِالرَّبِيحِ الْغَالِي مِنَ الْأَثْمَانِ

فأمر له بوصيف بربري فصيح ، فسمّاه « عطاء » وتكنّى به ، ورواه شعره .

فكان إذا أراد إنشاء شعر مديح لمن يجتديه ، أو مذاكرةً بشعر ، أمره بإنشاده !

وقد مات أبو عطاء سنة ١٦٨ هـ<sup>(٥)</sup> .

وأبياته السالفة تدلّ على مبلغ ما كان يعانيه من الحسرة والكمند ، حين

(١) اجتواه : كرهه .

(٢) ضرب الأمور ظهراً لبطن : قلبها على جميع وجوهها .

(٣) بان : انفصل . والبنان : أطراف الأصابع .

(٤) الفناء - ككساء - : ما اتسع من أمام الدار ، والأعطان : جمع عطن - كسبب - وهو في الأصل مبرك الإبل حول الحوض ، ومربض الغنم حول الماء ، وفلان رحب العطن : كثير المال

(٥) الأغاني ج ١٦ - ٨٣ .

ينشئ\* الشعر الجيّد ، ولا يستطيع إنشاده ، وقد عبّر عن ذلك أحسن تعبير !  
حيث شبه لسانه المحبوس عن القول ، بالقيد التي تغلّي وتفور ، ولا تجد لها  
مُتَنَفِّساً !

\* \* \*

الكميت بن زيد الأسدي :

كان الكميت طويلاً أصمّ ! ولم يكن حسن الصوت ، ولا جيد  
الإنشاد !

فكان إذا استنشده إنسان ، أمر ابنه « المستهّل » فأنشد بدله !  
وكان المستهّل حسن الإنشاد !  
وقد تقدم : أن الكميت أنشد بنفسه أمام « مخلّد المهلب » فلعل ذلك كان  
قبل أن يُصاب بالصّم ، أو كان يُنشد في الفلتات !

\* \* \*

عاصم بن زيد العبادي الأندلسي :

كان عاصم يعرف بأبي الخشّي ، وهو شاعر الأندلس في زمانه ، وقد عُرِفَ  
بخبث اللسان ، وكثرة الهجاء !

وله قصيدة مدح بها أبا أيوب بن عبد الرحمن الداخل ، عرض فيها  
بأخيه الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ! وذلك حيث يقول :

وليس كمن إذا ما سئل عُرفاً      يقلّب مُقلّةً فيها اعوراً<sup>(١)</sup>

وكان في إحدى عيني هشام نكتة بياض ، كجدّ أبيه هشام بن عبد الملك  
ابن مروان !

فأمر هشام بقطع لسانه ، وسمل عينيه !  
فعظم مصاب عاصم ، وكثرت شكايته وتوجّعته في أشعاره مما نزل به !

(١) سيل : أصلها : مثل سهلت الهمة لضرورة الشعر . والعرف - بضم فسكون - :  
المعروف .

وهذه من مزائق الشعراء ، وجرأتهم الحمقاء . وركوبهم المركب الحشن ،  
ومطاولتهم من يقدر على إنزال الضرر بهم . مع عجزهم عن الانتصاف منه !  
وبخاصة في عصور الاستبداد !

أرأيت عصفورا يُزاحم بأشيقاً إلا لَطَيْشْتَه وقله عقله  
وقد نبت بعد ذلك لعاصم لسان . فكان يُنشد به ، مع تلعم ، وعدم إبانة !  
فكان ينشد له صبيُّ علّمه ودرّبه !

وكان الإمام مالك - رضى الله عنه - يُفتى أولاً - فيمن قطع لسان رجل  
عمداً - : بقطع لسانه من غير انتظار !

ثم رجع عن رأيه لما انتهت إليه قصة « أبى المخشّى » وأن لسانه نبت بعد  
قطعه بمقدار سنة ، وأنبّه تكلم به .

فقال : ينتظر سنة ، فقد ثبت عندى : أن رجلاً بالأندلس نبت لسانه ،  
بعد أن قطع في نحو هذه المدة .

\* \* \*

أبو تمام الطائي :

كانت في أبى تمام حُبْسَةٌ شديدة وتمتمة<sup>(١)</sup> !

وقد حدث أنه امتدح أبا دُلَاف العجلى - وكان في المجلس من يكره  
أبا تمام - فلما افتتح قصيدته المشهورة - وهى من قصائده البارة - بقوله :

على مثلها من أربُع وملاعب

قال الرجل : لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين !

فدهش أبو تمام !

وتمام البيت :

\* تُذال مَصُوناتُ الدموعِ السواكبِ<sup>(٢)</sup> \*

( ١ ) التمتة : رد الكلام إلى التاء والميم ، أو أن تسبق كلمة إلى الحنك الأعلى ، وهو تمام ،  
وهى تمامة .

( ٢ ) تُذال : تهان وتبتذل .

وقد استمر أبو تمام يُنشد بنفسه ، ثم ترك الإنشاد لهذه الآفة ! فكان أخوه « سهم » ينشد نيابة عنه ! .

وفي حُبُوسة أبي تمام وتمتمته عند الكلام ، يقول فيه مخلد بن بكّار الموصلي :

يا نبيَّ الله في الشعر ويا عيسى بنَ مريم<sup>(١)</sup>  
أنت من أشعر خلق الله ما لم تتكلم  
ثم اشترى له « سعيد الثَّغري » غلاماً اسمه « الفتح » بثلاثمائة دينار ، لينشد شعره .

وكان الفتح غلاماً أديباً فصيحاً<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

### الشريف الرضيّ :

كان الشريف الرضيّ — رحمه الله — لا ينشد في المواقف المهيبة !  
وقد روى « صاحب التيممة » : أنه نظم قصيدة في بهاء الدولة ، فأنفذها إليه ؛ فنسبه بعض الحسّاد إلى الترفع عن إنشادها !

فقال : « الرضيّ » يعتذر عن الإنشاد : بأنه حيّ الوجه ! وقال في ذلك :

جَنَانِي شَجَاعٌ إِنْ مَدَحْتُ وَإِنَّمَا لِسَانِي إِنْ سِمَ النَّشِيدَ جَبَانُ  
وَمَا ضَرَّ قَوَّالًا أَطَاعَ جَنَانُهُ إِذَا خَانَهُ عِنْدَ الْمُلُوكِ لِسَانُ<sup>(٣)</sup>  
وَرُبَّ حَيٍّ فِي اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ وَقَاحٌ إِذَا لَفَّ الْجِيَادَ طِعَانُ<sup>(٤)</sup>  
وَرُبَّ وَقَاحِ الْوَجْهِ تَحْمِلُ كَفُّهُ أَنَامِلَ لَمْ يَعْرِقْ بَيْنَ عِنَانِ<sup>(٥)</sup>

( ١ ) يريد : أن الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — لا يليق بهم قول الشعر ؛ لقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » .

( ٢ ) دولة النساء — ١٠٩ — الأغاني — ١٨ ص — ٤٧ .

( ٣ ) أطاع جنانه وطاع : انقاد . والقعلان : لازمان .

( ٤ ) الوقاح هنا : الصلب الجريء .

( ٥ ) لم يعرق بين عنان : كناية عن الجبن ؛ وأنه لم يركب فرساً في الحرب .

وفخرُ الفتى بالقول لا بنشيدهِ وَيَرَوِي فلانٌ مرةً وفلان

\* \* \*

أحمد شوقي :

كان شوقي — رحمه الله — لا ينشد شعره بنفسه ، فكان ينوب عنه في إنشاده بعض من يحسن الإنشاد ؛ كالمرحوم « كامل الشنّاوى » من رجال الأدب والصحافة ، والمرحوم « كامل زيتون » من رجال التربية والتعليم .  
وقد ناب عنه المرحوم « على الجارم » في إلقاء قصيدته التي رثى بها صديقه وزميله « إسماعيل صبرى » في حفل تأبينه ، بمناسبة مرور الأربعين على وفاته !

وأول القصيدة :

أَجَلٌ وإن طال الزمانُ مُوافٍ أَخْلَى يديكَ من الخليل الوافٍ  
وكان لبلاغة القصيدة التي تعدّ من فرائد شوقي في المراثى ، بما حوت من حكم وأمثال في فلسفة الموت ، وغرور الدنيا ، وتفجّع على ذهاب الشباب ، وفراق الأحباب ، وأداء « الجارم » الشّاجى ، واحتفاله بالإنشاد ، وتفنّنه في الإلقاء ؛ وقع السحر في نفوس الحاضرين ، حتى لقد بدا الشعراء المؤبنون أقزاما — على جودة شعرهم — بجانب أميرهم العملاق !  
ولإليك طرفاً من هذه المراثية الرائعة :  
يقول في نعيم الدنيا المشعر ببؤسها :

ما أَنت يا دنيا أَرُويَا نائمٍ أَم ليل عُرْسٍ أَم بِساطُ سُلّافٍ  
نَعْماءُكَ الريحانُ إلا أَنه مَسّت حَواشيه نقيعَ زُعافٍ  
ويقول في العلة التي أودت بالشاعر الراحل — وهى الذبحة الصدرية — :

ذَهَبَ الذَّبِيحُ السَّمْحُ مِثْلَ سَمِيهِ طَهَّرَ الْمُكَفَّنَ طَيِّبَ الْأَلْفافِ (١)

(١) سميّه : هو سيدنا إسماعيل عليه السلام .



كم بات يذبح صدره لشكاته      نزلت على سحر السماح ونحره  
 وتقلبت في أكرم الأكناف<sup>(١)</sup>      لجبت على الصدر الرحيب وبرحت  
 بالكاظم الغيظ الصفوح العافي      ما كان أقسى قلبها من علة  
 علقت بأرحم حبة وشغاف<sup>(٢)</sup>      قلب لو انتظم القلوب حنانه  
 لم يبق قاس في الجوانح جاف

ويقول في مغالاة الأحياء بتشييد القبور :

لا يُعجبَنَّك ما ترى من قبة      هجموا على الحق المبين بباطل  
 ضربوا على موتاهم وطراف<sup>(٣)</sup>      يبنون دار الله كيف بدالهم  
 وعلى سبيل القصد بالأسراف      ويذوقون قبورهم كقصورهم  
 عُرفات مُثر أو سقيفة عاف      والأرض تضحك والرفات السافي

ويقول في فجيعتنا بالشاعر العظيم :

فُجِعت رُبَا الوادي بواحد أُنكها      فقدت بنانا كالربيع مُجيدة  
 وتجرعت تُكَل الغدير الصافي      إن فاته نسب الرضى ، فربما  
 وشى الرياض وصنعة الأفواف      أو كان دون أبي الرضى أبوة  
 جريا لغاية سُودد وطراف<sup>(٤)</sup>      شرف العصامين صنع نفوسهم  
 فلقد أعاد بيان عبد مناف      قل للمشير إلى أبيه وجده  
 من ذا يقيس بهم بنى الأشراف

(١) السحر : كصدر وقفل وكثف - : الرثة .

(٢) يريد بالحبة والشغاف : القلب .

(٣) الطراف - ككتاب : بيت من الجلد . والمراد به : المقاصير التي توضع على بعض القبور .

(٤) الطراف هنا : مأخوذ من قوطم : توارثوا الحمد طرافا : أى عن شرف .

ويقول في المصير الحتم الذى ينتهى إليه كلّ الناس ، ويتساوون لديه :

«قاضى القضاة» جرت عليه قضيةٌ  
وَمُصْرَفُ الْأَحْكَامِ مَوْكُولٌ إِلَى  
وَمُنَادُمُ الْأَمْلَاقِ تَحْتَ قَبَابِهِمْ  
فِي مَنْزِلِ دَارَتِ عَلَى الصَّيْدِ الْعُلَا  
وَأَذِيلٍ مِنْ حُسْنِ الْوُجُوهِ وَعِزِّهَا  
مِنْ كُلِّ لَمَّاحِ النَّعِيمِ تَقَلَّدَتْ  
وَتَرَى الْجَمَاجِمَ فِي التُّرَابِ تَمَاثَلَتْ  
وَتَرَى الْعَيُونَ الْقَاتِلَاتِ بِنَظَرَةٍ  
وَتُرَاعُ مِنْ ضَحِكَ الثُّغُورِ وَطَالَمَا  
لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مِنْ اسْتِثْنَاءٍ  
حُكْمُ الْمَنِيَّةِ مَالَهُ مِنْ كَافٍ  
أَمْسَى تُنَادِمُهُ ذُنَابُ فَيَافٍ  
فِيهِ الرَّحَى وَمَشَتْ عَلَى الْأَرْدَافِ (١)  
مَا كَانَ يُعْبَدُ مِنْ وَرَاءِ سِجَافٍ (٢)  
دِيْبَاجَتَاهُ عَلَى بِلَى وَجَفَافٍ  
بَعْدَ الْعُقُولِ ثَمَاثُلُ الْأَصْدَافِ  
مَنْهُوبَةُ الْأَجْفَانِ وَالْأَسْيَافِ  
فَتَنَّتْ بِحُلُوِّ تَبَسُّمٍ وَهْتَافٍ

ثم يتواضع - رحمه الله - فى ظل جلال الموت ، وجمال الوفاء للأصدقاء  
الراجلين ، والاعتراف بسابقتهم وفضلهم ، فيقول :

أَبَا الْجَسِينِ تَحِيَّةٌ لِشَرَاكِ مِنْ  
وَسْلَامِ أَهْلٍ وَلَهُ وَصْحَابَةٍ  
هَلْ فِي يَدَيَّ سِوَى قَرِيضٍ خَالِدٍ  
مَا كَانَ أَكْرَمَهُ عَلَيْكَ فَهَلْ تَرَى  
هَذَا هُوَ الرِّيحَانُ إِلَّا أَنَّهُ  
رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَعَذْبُ نِطَافٍ (٣)  
حَسَرَى عَلَى تِلْكَ الْخِلَالِ لِهَافٍ  
أُزْجِيهِ بَيْنَ يَدَيْكَ لِلاتِّحَافِ  
أَنْبَى بَعِثْتَ بِأَكْرَمِ الْأَطَافِ  
نَفَحَاتُ تِلْكَ الرُّوْضَةِ الْمِثْنَانِ (٤)

(١) الأرداف : جمع ردف ، وهو جليس الملك عن يمينه يشرب بعده ، ويخلفه إذا غزا .

(٢) السجاف - ككتاب : الستر .

(٣) النطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى قل أو كثر ، أو قليل ماء يبقى فى دلو أو قربة

(٤) الروضة المثانف : البكر التى لم ترع ولم تجن .

والدرُّ إِلَّا أَنْ مَهْدَ يَتِيمِهِ      بِالْأَمْسِ لَجَّةٌ بِحَرَكِ الْقَذَافِ  
 أَيَّامَ أَمْرَحَ فِي غُبَارِكَ نَاشِئاً      نَهَجَ الْمِهَارِ عَلَى غُبَارِ خَصَافِ<sup>(١)</sup>  
 أَتَعَلَّمُ الْغَايَاتِ كَيْفَ تُرَامُ فِي      مِضْمَارٍ فَضْلٍ أَوْ مَجَالِ قَوَافِ

وهكذا بقية القصيدة في الحسن ، وما محاسن شيء كله حسن - كما يقولون -  
 رضى الله عن شوقى ! فقد فات السابق ، وأتعب اللاحق !

حَلَفَ الزَّمَانُ لِيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ      حَنَثْتُ يَمِينِكَ يَا زَمَانَ فَكَفَرُ

وقد اختلف الأدباء في تعليل امتناع شوقى عن الإنشاد بنفسه !

وقيل : إنه كان خفيض الصوت ، لا يمكنه إسماع الجماهير !

وقيل : إنه كان رقيق الوجه ، كثير الحجل ، لا يستطيع مواجهة النظارة .

وقيل : إنه كان عَيِيئاً حَصِيراً ، معقول اللسان !

وقيل : إنه كان مزهواً متكبراً ، يرى أنه أرفع من أن يقف منشداً للشعر ،  
 أو أكبر من أن يقف مع غيره من الشعراء ! وهو تعليل مردود ، لأن شوقى كان رقيقاً  
 مهذباً متواضعاً حَيِيّاً ، قليل الكلام بطبعه ، حتى لتظنّه قليل الحظ من التعليم والعرفان .  
 ولا ندرى أى هذه العلل أحق بالتصديق ؟ وقد تكون كلها مجتمعة ، وإن كنت  
 أرجح العلة الأولى والثانية والثالثة .

وقد عرض المرحوم حافظ إبراهيم ، في قصيدته التي كرمه بها في حفل مبايعته  
 بإمارة الشعر ، فننى عنه العيى والترفع ، ولكنه لم يذكر لنا السرّ في عدم إلقاء  
 الشعر بنفسه ، وكان الواجب أن يذكره ما دام قد تعرّض إلى ذلك ، وإلا كان  
 الكلام ناقصاً .

(١) خصاف - كسحاب - فرس لمالك بن عمرو الغساني ، وكتتاب : حصان لسمير بن

ربيعة الباهلي ، وفيها يقال : أجزأ من فارس خصاف بالفتح وبالكسر !

يقول :

يَعْيَبُونَ « شوقى » أَنْ يُرَى غَيْرَ مُنْشِدٍ      وما ذاك من عىٍّ ولا من تَرْفَعِ  
ثم يقول :

وما كان عاباً أَنْ يَجِىءَ بِمُنْشِدٍ      لأبياته أو أَنْ يَجِىءَ بِمُسْمِعٍ  
فهذا كليمُ الله قد جاءَ قبلَه      بهارونَ ما يأمُرُه بالوحي يَصْدَعُ  
وقد نسى حافظ : أَنْ « كليم الله موسى » كانت به لُشْغَةٌ جعلته أَقْلًا  
فصاحه من أخيه هارون — عليهما السَّلام ! — فعذره واضح فى أَنْ يستنصر  
فى التبليغ بأخيه !  
فهل يريد « حافظ » أَنْ شوقى به عيب من عيوب المنطق ؛ كالفأفة  
والتمتمة مثلاً ؟

ذلك لم يعرف عن شوقى ، وهو لم يذكره حافظ !

هذا إلى أَنْ « حافظ » نفى عنه كل أسباب العىِّ فى بيته السابق :

..... وما ذاك من عىٍّ ولا من تَرْفَعِ  
وعلى ذلك يكون « حافظ » وقع فى تناقض وخلط ، ساقه إليهما هذا القياس ،  
وهو قياس مع الفارق — كما قيل — .

ثم نسى حافظ كذلك : أَنْ موسى لم يأت بهارون مستقلاً بنفسه دون ربِّه ،  
كما أتى شوقى مختاراً بالمنشِد والمُسْمِع ؛ لأن موسى لا يستطيع أَنْ يمنح  
النبوة أو يهب الرسالة لغيره . ولكنَّه طلب من الله أَنْ يعينه بأخيه على أداء  
رسالته وحمل أمانتها « واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشددْ به أزرى  
وأشركه فى أمرى » (١) .

« ويضيق صدرى ولا ينطق لسانى فأرسلْ إلى هارون » (٢) .

(١) الآيات - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ من سورة طه .

(٢) الآية ١٣ من سورة الشعراء .

« وأخى هارونُ هو أفصح مني لساناً ، فأرسله معي ردءاً يصدّقني إني أخاف أن يكذبون » <sup>(١)</sup> .

فأجابه — سبحانه — إلى طلبه ؛ رحمة منه وتفضلاً وتطوّلاً !

« ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً » <sup>(٢)</sup> .

« ولقد آتينا موسى الكتاب ، وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً » <sup>(٣)</sup> .

فهارون كان نبياً ورسولاً مثل موسى ، لا مجرد مبلّغ فقط ؛ كالمنشد والمسمع عن شوق !

وهارون لم يجيء به موسى ، وما كان ينبغي له أن يجيء به ! بل جاء به الله — تعالى — ففرق شاسع بين الموقفين !

هذا إلى أنه لم يُعرّف أن أحداً عاب شوق ؛ لعدم إنشاده شعره ؛ فالذين عاشروه وعرفوه مقتنعون : بأنه لا يصلح لإنشاد الشعر ! وهم ملتمسون له العذر ، ولكنهم مختلفون في تعليل ذلك ! فلا معنى لقول حافظ :

يعيبون شوقي . .

لأنّ أحداً لم يعبه !

ثم إنه لا تصحّ المقايسة والتشبيه بين موسى النبي والرسول ، وشوق الشاعر ! ولا بين هارون النبي والرسول ، وأخى موسى ووزيره ، وبين « فُل » و« فلان » ممن يلقون شعر شوق !

وفي مثل هذا يقول الزهرى : لا تناظر بكتاب الله ، ولا بكلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : أى لا تجعل شيئاً نظيراً لهما !

أو معناه : لا تجعلهما مثلاً لشيء لغرض ، كقول القائل : « جئت على قدّر يا موسى » : لمسمّى بموسى جاء في وقت مطلوب <sup>(٤)</sup> !

( ١ ) الآية — ٣٤ من سورة القصص .

( ٢ ) الآية ٥٣ من سورة مريم .

( ٣ ) الآية — ٤٥ من سورة الفرقان .

( ٤ ) القاموس المحيط : مادة « نظر » .

ونحبّ أن نقول هنا : إذا صحّ أن شوقي كان لا ينشد حياء ، فإنّ له أخاً في ذلك سابقاً له ، وهو الشريف الرضى ، كما مرّ .

وإن كان لا ينشد تكبراً أن يقف مع غيره من الشعراء ، فله شبيه في ذلك ، وهو الحسين بن الضحّاك المعروف بالخليع !

فقد كان الحسين بن الضحّاك ينشد بنفسه ، ولكنه كان يترفع عن الإنشاد مع الشعراء ! فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني : أنه لما ولي الواثق بالله العباسي الخلافة ، جلس للناس ، ودخل إليه المهثون والشعراء فدحوه وهنّوه !

ثم استؤذن للحسين بن الضحّاك في الإنشاد - وكان من الجلّساء - فترفّع عن الإنشاد مع الشعراء ، فأذن له وحده ، فأنشده قصيدته التي أولها :

أُكَاتِمُ وَجْدِي فَمَا يَنْكُتُمُ	بِمَنْ لَوْ شَكُوتُ إِلَيْهِ رَحِمُ
وَإِنِّي عَلَى حُسْنِ ظَنِّي بِهِ	لَأَحْذَرُ إِنْ بُحْتُ أَنْ يَحْتَشِمُ
وَلِي عِنْدَ نَظَرْتِهِ رَوْعَةٌ	تُحَقِّقُ مَا قَالَهُ الْمُتَهِمُ
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّي لَهُ	مُحِبٌّ ، وَأَحْسَبُهُ قَدْ عَلِمَ
رَأَى شِيمَةَ الْجُودِ مَحْمُودَةً	وَمَا شِيمُ الْمَجْدِ إِلَّا قِسَمُ
فَرَاخَ عَلَى «نَعَمٍ» وَاغْتَدَى	كَأَنَّ لَيْسَ يُحْسِنُ إِلَّا نَعَمُ
وَإِنِّي لَمُغْضٍ عَلَى لَوْعَةٍ	مِنَ الشَّقِيقِ فِي كَبْدِي تَضْطَرُّمُ

ثم يقول في مديحه :

تَرَى النَّصْرَ يَقْدُمُ رَايَاتِهِ	إِذَا مَا خَفَقْنَ أَمَامَ الْعَلَمِ
وَفِي اللَّهِ دَوَّخٌ أَعْدَاءَهُ	وَجَرَّدَ فِيهِمْ سَيُوفَ النَّقَمِ
وَفِي اللَّهِ يَكْظِمُ مِنْ غَيْظِهِ	وَفِي اللَّهِ يَصْفَحُ عَمَّنْ ظَلَمَ

فأمر له الواثق بثلاثين ألف درهم ، واتخذَه من ندمائه ، واتصلت أيامه به <sup>(١)</sup> !

وأذكر بهذه القصة : أن المرحوم «على الجارم» بعد موت كبار الشعراء الذين يقاربونه في السن ، كان يأبى أن ينشد مع الشبان في الحفلات ، التي كانت تقيمها الإذاعة المصرية في المناسبات المختلفة !

ولست أذهب هذا المذهب ؛ فالشعر ديمقراطيّ يؤمن بالتواضع ، ويكره التمايز والتعالى ! والشاعر الكبير يجب أن يعطف على الأحداث منهم ، ويشجعهم ، وينزلهم منزلة أولاده !

\* \* \*

### خليل مطران :

يقول عنه العقاد : كان يروى شعره ، ولا ينشده إلا قليلاً<sup>(١)</sup> .  
ولعل هذا القليل الذي يعنيه العقاد ، هو ما كان يلقيه الخليل في بعض المناسبات كحفلات التكريم والثناء .

\* \* \*

### العقاد :

كان ينشد شعره بنفسه في مناسبات قليلة جداً كحفلات التأيين ؛ لأنه — رحمه الله — لم يكن شاعر مناسبات !

وكان إنشاده مهيباً جليلاً وقوراً ؛ مُسْتَمَدّاً من شخصيته الضخمة !  
ولكن صوته أجشّ مبهم ، خال من الطنطنة والرنين !

وطالما تمدّى إخوانه ومحّبوه وتلاميذه ، لو أنه ترك إنشاد شعره الفيلسفي الحكيم إلى غيره ! فكان أن استجاب لهم أخيراً ، فتخلّى عن إنشاد الشعر ، بل إلقاء المقالات والخطب في المهارج العامة ! وناب عنه في ذلك الأستاذ صالح جودت ! .

\* \* \*

\* \* \*

## على الجحارم :

كان الجحارم — رحمه الله — ينشد شعره بنفسه — كما قلنا — ثم ضعف عن إنشاد الشعر في أيامه الأخيرة ، فكان ينوب عنه ابنه الأستاذ « بدر الدين الجحارم » وهو منشد مبدع مثل أبيه — والولد سرّ أبيه — ! . . .

وكانت آخر قصيدة أنشدها « بدر الدين » نيابة عنه ، قصيدته التي رثى بها المرحوم « محمود النقراشي باشا » أحد رؤساء الوزارات المصرية ، ورئيس الحزب السعدى ، المنبثق من « حزب الوفد » برياسة « مصطفى النحاس باشا » قبل قيام ثورتنا البيضاء ، وكان ذلك في حفل التأبين الأربعيني الذي أقيم له ! وقد وافت « الجحارم » منيَّته المحتومة — في هذا الحفل نفسه — وهو يسمع قصيدته مطرقاً واجمّاً من فم ابنه !

وكان لموت « الجحارم » المفاجئ في حفل تأبين لميت ، وقع الصاعقة في نفوس الحضور !

فأرسلوا العبرات من عيون شكركى<sup>(١)</sup> ! وصعدوا الزفرات من صدور حررى ! واستشعروا قرب الموت ورهبته وسطوته !

فولّيهت النفوس ، ووجفت القلوب ؛ ولم ير كاليوم أكثر باكية وباكية ! وسبحان من يرث الأرض ومن عليها ! وله الخلق والأمر ! وبيده نواصى العباد ومناياهم « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . والله درّ من قال :

وكم من صحيح مات من غير علة      وكم من سقيم عاش دهرًا إلى دهر  
وكم من فتى يُمسي ويُصبح آمناً      وقد نُسجتْ أكفانه وهو لا يدري  
وإلى هذا الحادث الفاجع ، يشير زميلنا الشاعر الكبير « محمود غنيم » في رثائه للجحارم من قصيدة عنوانها « عرش ينوح »<sup>(٢)</sup> .

(١) شكري — كسكري : غزيرة الدمع .

(٢) ديوان في ظلال الثورة — ١٨٨ .



ومطلعها :

عرش ينوح أسى على سُلطانهِ  
لَمَّا تَهَاوَسَتِ الصُّفوفُ بنعِيهِ  
سَاءَلْتُ حِينَ قَضَى عَلَى فُجَاءَةٍ  
سَقَطَ. المؤبَّن وهو يسمع شعره  
وصفَ الزمانَ لنا وِجادَ بنفسه  
قال احذروا غَدَرَ الحِمَامِ مُعَزِّزًا  
لا تعجبوا من موته في حَفْلِهِ  
بطل المنابر ماله مِنْ فوقها  
إِنْ خانَه ضَعْفُ المشيبِ فطالما  
كلًّا لعمري لم يَخُنْهُ مَشْيِيهِ  
حُرٌّ قَضَى متأثِّرًا ببيانه

قد غاب كسرى الشَّعر عن إيوانه  
كاد الفؤاد يَكُفُّ عن خفقانه  
هل حلَّ يومُ الحَشْرِ قبلَ أوانه  
مَنْ ذَا يُؤبِّنُه بِمثلِ بيانه  
لتكونَ برهانًا على حَدِثانه  
بِحَياته ما قاله بلسانه  
إِنَّ الشَّجاعَ يموتُ في ميدانه  
يَهْوِي وكم عَرَفْتُ ثباتَ جَنانه  
قَهَرَ المنابرَ وهوَ في رِيَّعانه  
لكنَّ حِسَّ المرءِ من خُوانه  
ولكم جَنَى فنَّ على فنَّانه

\* \* \*

محمود عماد :

كان محمود عماد — رحمه الله — ينشد شعره أيام شبابه ، ولكن ضَعْفُ  
صوته في أيامه الأخيرة ضعفًا شديدًا ، حتى لا يكاد يُسمع الصفَّ الأول من  
المحافل الأدبية ؛ فكان يعتمد على مكبِّرات الصوت !  
ثم لم تُغن عنه هذا المكبرات ، تحت إلحاح أمراض الشيخوخة ، فترك  
إنشاد شعره لغيره !

رحم الله من ماتوا وأجزل مثوبتهم ، وأكرم نُزُلهم ، ونسأ في أعمار الباقيين ،  
ورزقهم القوة والفتوة !

## الفصل الثامن

### عذوبة النغمة

هناك أشياء لا بد من مراعاتها ، ليزداد بها الشعر حسناً في حال إنشاده ؛ كما أنها تُضفي على الإنشاد نفسه أناقة وبداعة وطرافة ؛ فتتلقاه المسامع بالقبول وتنشرح له الصدور ؛ وتتنزّي له العواطف والوجدانات ، وتحسّ له بشاشة ونداوة وحلاوة !

فمن ذلك عذوبة النغمة ، إذ ليس الإنشاد إلا ضرباً من الغناء ، والغناء يعتمد أساساً على جمال الصوت ؛ ورقته ورنخامته !

وقد قدّمنا أن الشعر المتناشد ، يعلى من قدره ، ويغطّى على عيوبه ، ويمنحه رونقاً ونضرة وقبولا ، أن يكون ملقيه من ذوى الأصوات النديّة ، والنبرات الطليّة !

وينضاف إلى ذلك: أن يكون لسانه سالماً من العيوب التي تشين الألفاظ ، فلا يكون ألغ ، ولا فأفاء ، ولا ذارُتّة ، ولا تتماماً ، ولا ذا حُبُسة ، ولا ذا لفّ (١) ؛ فإن ذلك أجمع مما يذهب ببهاء الكلام ، ويهجنّ البلاغة ، وينقص حلاوة النطق (٢) .

ولم يتكلم معاوية على منبر جماعة ، مذ سقطت ثنياه في الطست !

(١) الرقة - بالضم - العجمة في الكلام . والتمتاع : من يرد الكلام إلى التاء والميم ، أو أن تسبق كلمته إلى حنكه الأعلى . واللفف - كسبب - : العي وبطء الكلام ، ومله الفم باللسان عند الكلام .

(٢) نقد النثر - ١١٢ .

ولما شدّ عبد الملك أسنانه بالذهب ، قال : لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت .

وأمر الصوت عجيب — كما يقول الجاحظ<sup>(١)</sup> — وتصرّفه في الوجوه أعجب !  
فن ذلك : أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة !

ومنه ما يسرّ النفوس حتى يفرط عليها السرور ؛ فتقلق أو ترقص ! وحتى ربما رمى الرجل نفسه من حائق ! وذلك مثل الأغاني المطربة .

ومن ذلك ما يكمد ! : أى ما يجلب الكمد ، وهو تغير اللون ، وذهاب صفائه ، والحزن الشديد ، ومرض القلب منه ! .

ومنه ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه ؛ كنحو هذه الأصوات الشجيّة ، والقراءات الملحّنة .

ثم يقول : — وهو المهم في موضوعنا — وليس يعتريهم ذلك من قبل المعاني ، لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون معاني كلامهم ! وقد بكى « ما سرجويه » من قراءة « أبي الخوخ » فقليل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تؤمن به ؟  
فقال : إنّما أبكاني الشّجا !

وقد عبر عن معنى « ماسرجويه » أبو تمام — وقد سمع غناء بخراسان بالفارسية ، فلم يدر ما هو ، غير أنه شوقه لشجاء وحسنه — فقال في ذلك<sup>(٢)</sup> :

حميدتك ليلةً شرفت وطابت      أقام سهادها ومضى كراها  
سمعت بها غناءً كان الأوّل      بأن يقتادُ نفسى من غناها  
ومُسمِعةً يحار السمعُ فيها      ولا تُصمِّمُه ، لا يصمّم صداها<sup>(٣)</sup>  
مرت أوتارها فشفت وشاقت      فلو يستطيع حاسدُها فدأها<sup>(٤)</sup>

(١) الحيوان — ٤ — ٦٢ .

(٢) رغبة الآمل ، من كتاب الكامل — ٧ — ٣٠ — ٣١ .

(٣) لا يصم صداها : دعاء لها بطول العمر .

(٤) مرت : يريد استخرجت ، وأصل المرى — كرى — : أمسح ضرع الناقة لتدر .

ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدى فلم أجهل شجاها<sup>(١)</sup>  
فكنت كأننى أعمى معننى بحب الغانيات ولا يراها

وأفصح عنه حميد بن ثور فى قوله من قصيدة :

وما حاج هذا الشوق إلا حمامة دعت ساق حر ترحة وترنما<sup>(٢)</sup>  
مطوقة خطباء تسجع كلما دنا الصيف وانجال الربيع فأنجما<sup>(٣)</sup>  
تغنّت على غصن عشاء فلم تدع لنا نائحة فى شجوها متلوما<sup>(٤)</sup>  
إذا حرّكته الريح أو مال ميلة تغنّت عليه مائلا ومقوما  
عجبت لها أننى يكون غناؤها فصيحاً ولم تغر بمنطقها فما<sup>(٥)</sup>  
فلم أر مثلى شاقه صوت مثلها ولا عربياً شاقه صوت أعجما

يقول : لم أفهم ما قالت ، ولكنى استحسنت صوتها واستحزنته ،  
فحننت له .

ويروى : أن بعض الصالحين كان يسمع الفارسية تنوح ، ولا يدرى  
ما تقول . فيبكيه ذلك ويرققه ، ويذكر به غير ما قصدت له .

ويقول ابن أبى ظبية : كنت أسمع إبراهيم بن المهدي يتنحنح فأطرب<sup>(٦)</sup> !  
وكان ابن المهدي إذا غنى . أصغت إليه الوحوش . ووقفت الطير ، ومدت أعناقها  
حتى تضع رءوسها فى حـجره ! فإذا سكت نفرت وهربت ! وكان إذا غنى

( ١ ) الورى - كالرمى - وهو قرح شديد فى الجوف يهلك صاحبه .

( ٢ ) ساق حر : ذكر القهارى ، أو حكاية صوتها ، أو الساق : الحمام . والحر - بضم الحاء  
وفتحها - : فرخها .

( ٣ ) خطباء : من الخطبة بالضم ، وهى كدرة مشربة حمرة فى صفرة . وانجال : أقطع - وهى  
رواية المبرد - وفى نهاية الأرب - ٢ - ٢٤٨ : انزاح .

( ٤ ) متلوم : ما تلام عليه .

( ٥ ) فغره فاه من باب نصر ومنع : فتحه كأفغره ، وفغرفوه ، وافغفر : افتتح .

( ٦ ) الفهرس - ٦٨ .

كذلك لم يبق أحد إلاّ ذهبل وترك ما في يده حتى يفرغ !  
 وبعض المغنّين كان ينادى على اللحم فيطرب الناس ! وبعضهم يستوقف  
 الأطباء ، وبعضهم يستوقف المحامل ، ويعطلّ العمل بحسن صوته !  
 وبينما ابن مُليكة يؤذّن ؛ إذ سمع « الأنخضر الجدى » يتغنّى في دار العاص  
 ابن وائل بقول المجنون (١) :

صغيرين نرعى البهّم يا ليت أنّنا إلى اليوم لم نكبّر ولم تكبّر البهّم  
 فأراد أن يقول : حيّ على الصلاة ، فقال : حيّ على البهّم ! فسمعه أهل  
 مكة ؛ فجاء يعتذر إليهم (٢) !

وقد سمعت - وأنا صغير السن - من شيوخ قرينتنا : أن الناس كانوا يطربون  
 لصوت فتاة تدعى « زهرة بلابل » حين تنادى على فجّلها : « ريّاني  
 يا فجّل » .

هكذا يفعل الصوت الجميل بنا ، ولو كان يحمل إلينا كلاماً لا نفهمه !  
 أو كلاماً من سقط المتاع ! .

فكيف بالصوت الجميل ، إذا كان يسكب في آذاننا هذا الشيء الساحر ،  
 الذي يُسمّى شعراً ، والذي يعدّ أرقى فنون الجمال ؟ !

إن « السمع » أوجد لنا أرفع فنون الجمال : « الشعر والموسيقى والبلاغة » كما  
 يقول « جويو » (٣) .

وهو يدين بأرفع مزاياه الجمالية إلى الصوت ؛ لأنه خير وسيلة للتفاهم بين  
 الكائنات الحية ، وبذلك اكتسب قيمته الاجتماعية .

فغرائز التعاطف والاجتماع ؛ هي الأساس في كل المتع الجمالية التي  
 تحسّها الأذن ، فأجمل ما في الصوت بالنسبة للكائن الحيّ ، هو أنه تعبير  
 في جوهره ، فبه نقاسم الآخرين أفراحهم وآلامهم بوجه خاص ، كما أن اللهجة

(١) النجوم الزاهرة - ٢ - ٢٤١ .

(٢) مصارع العشاق - ١٢ .

(٣) مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ٦٥ - ٦٦ .

أجمل شيء بالنسبة للأذن ، وأنت تعلم أن اللهجة هي التعبير المباشر النابض عن العاطفة .

واللهجة هي العنصر الأساسي كذلك في فنّ الدراسة ، فالألم الذي يعبر عنه بالصوت ، يؤثر فينا على وجه العموم تأثيراً روحياً ، أبلغ من تأثير الألم الذي يعبر عنه بقسمات الوجه ، وحتى الحركات ! .

والشعر نفسه ليس في حقيقة أمره ، إلا جملة من الكلمات المختارة ، يقصد بها الشاعر أن يهزّ الأذن هزّاً أقوى ! فكأنها تحمل في ذاتها لهجتها الخاصة .

وقد فطن صاحب « نقد النثر »<sup>(١)</sup> إلى أثر الإنشاد الحسن في تحسين الشعر ، فقال : وما يزيد في حسن الشعر ، ويمكن له حلاوة في الصدر ، حسن الإنشاد وحلاوة النغمة .

ويقول في موضع آخر — مفرّقا بين الشعر والخطابة — : وليس يلتفت في الخطابة إلى حلاوة النغمة ، إذا كان الصوت جَهِيرًا ؛ لأن حلاوة النغمة ، إنما تراد في التلحين والإنشاد دون غيرهما .

ويقول في موضع آخر : وما يريد في حسن الخطابة ، وجلالة موقعها : جَهارة الصوت ؛ فإنه من أجلّ أوصاف الخطباء ، ولذلك قال الشاعر :

جَهِيرُ الكلامِ جَهِيرُ العُطاسِ      جَهِيرُ الرُّوءِ جَهِيرُ النِّعَمِ

وقال آخر :

إن صاح يوماً حسبت الصخر مُنْحدِراً      والريحَ عاصفةً والموجَ يلتطم

وذم آخر بعض الخطباء برقة الصوت وضآلته ، فقال :

ومن عجب الأيام أن قمتَ خاطباً      وأنت ضئيلُ الجسمِ مُنتَفِخُ السَّخَرِ<sup>(٣)</sup>

( ١ ) نقد النثر — ٩٠ .

( ٢ ) المصدر نفسه — ١٠٩ .

( ٣ ) السخر — كسطر وسبب وقفل — : الرئة .

وفى تفضيل الجهارة فى الخطيب ؛ يقول شبّة بن عقال - يعقب خطبته عند سليمان بن علىّ العباسيّ - :

أَلَا لَيْتَ أُمَّ الْجَهْمِ وَاللَّهُ سَامِعٌ تَرَى حَيْثُ كَانَتْ بِالْعِرَاقِ مُقَامِي  
عَشِيَّةَ بَدْءِ النَّاسِ جَهْرَى وَمَنْطِقِي وَبَدْءَ كَلَامِ النَّاطِقِينَ كَلَامِي<sup>(١)</sup>

وقال طحلاء يمدح معاوية بالجهارة ، وبجودة الخطبة :

رَكُوبُ الْمَنَابِرِ وَثَابُهَا مَعْنٌ بِخُطْبَتِهِ مِجْهَرُ<sup>(٢)</sup>  
تَرْيَغٌ إِلَيْهِ هَوَادَى الْكَلَامِ إِذَا ضَلَّ خُطْبَتَهُ الْمِهْذَرُ<sup>(٣)</sup>

والسرّ فى هذا يرجع إلى ما قلناه : من أن الشعر توعم الغناء ، ومن لوازمه حسن الإنشاد ، الذى يخلو بحلاوة الصوت اللين المطرب ! بخلاف الخطابة التى تقوم على التبرّ الفحل ، والصوت الضخم الجهير ، لا النغم الهامس الرقيق .

ويقولون : إنه لما زال أمر مروان بن محمد ، الملقب بمروان الحمار ، آخر ملوك بنى أمية ، أتى المنصور بخواصه ، وفيهم عبد الحميد الكاتب ، والبعلبكي المؤذن ، وسلام الحادى ، فهمّ بقتلهم ! .

فقال سلام : استبقنى - يا أمير المؤمنين - فإنى أحسن الحُداء !

قال : وما بلغ من حداثك ؟ .

قال : تعمد إلى إبل فتظمتها ثلاثة أيام ، ثم توردها الماء ! .

فإذا بدأت تشرب ، رفعت صوتى بالحُداء ، فترفع رعوسها وتدع الشرب ، ثم لا تشرب حتى أسكت ! .

( ١ ) بد : فاق .

( ٢ ) معن - بكسر ففتح ونون مشددة - : تعرض له الخطبة فيخطبها مقتضياً لها .

( ٣ ) تريغ إليه - بفتح التاء - : ترجع . وهوادى الكلام : أوائله .

فأمر المنصور بإبل ففعل بها ذلك ، فكان الأمر على ما قال !

فاستبقاه وأجازه ، وأجرى عليه رزقاً !

وقال البعلبكي : استبقني — يا أمير المؤمنين — في مؤذن منقطع القرين !

قال : وما بلغ من أذائك ؟

قال : تأمر جارية ، فتقدم إليك طَسْتاً ، وتأخذ بيدها إبريقاً ، وتصبّ

الماء على يدك ؛ فأبتديء بالأذان ، فتدهش ، ويذهب عقلها ، حتى تُلقي

الإبريق من يدها ، وهي لا تعلم ! .

فأمر المنصور جارية ففعلت ذلك ، وأذن البعلبكي ، فكان الأمر كما

وصف .

فاستبقاه ، وأجازه ، ووصله <sup>(١)</sup> .

ولم يقبل — مع الأسف — من عبقريّ الكتابة « عبد الحميد » عذراً ، مع

أنه أهمّ من زميليه !

فأمر بقتله على أقبح صورة ، وأشنع مُثْلَة !

فإذا كان الأذان بالصوت النديّ ، له هذا الأثر البالغ في النفوس !

وإذا كان حُسْنُ الحداء بشعر ساذج ، يفعل في العجاوات هذا الفعل

الغريب ! فما الظن بالإنشاد الجميل ، في النفوس العاقلة الحساسة الذواقة ؟ !



## الفصل التاسع

### حسن الهيئة والشارة

أن يكون نظيف الثياب ، أنيق الهندام ، حسن الهيئة ، عطر الرائحة ! إلى أشياء أخرى معنوية أوردتها ابن رشيق في قوله <sup>(١)</sup> : من حُكِّم الشاعر : أن يكون حلو الشائل ، حسن الأخلاق ، طَلَقَ الوجه ، بعيد الغور ، مأمون الجانب ، سهل الناحية ، وطىء الأكناف ؛ فإنَّ ذلك مما يحبِّبه إلى الناس ويزيِّنه في عيونهم ، ويقرِّبه من قلوبهم ! وليكن مع ذلك : شريف النفس ، لطيف الحسَّ ، عزَّوب الهمة <sup>(٢)</sup> ، لطيف البزَّة ؛ لتهابه العامة ، ويدخل في جملة الخاصة ، فلا تتمجَّه أبصارهم ، سمح اليدين . . .

فأنت تراه جعل من آداب الشاعر ، أن يكون لطيف البزَّة . ويحضرنا في ذلك : أن جعفرًا البرمكيَّ ، وصل أشجع السُّلَميَّ بعشرة آلاف درهم — وكان أشجع يحب الثياب — فكان يكتري الحلعة في كل يوم بدرهمين فيلبسها أيامًا ، ثم يكتري غيرها وهكذا ! ثم ابتاع ثيابًا كثيرة بباب الكَرَّخ لنفسه ولعياله وعمال إخوته ، حتى أنفق المبلغ كله كما حدَّث بنفسه <sup>(٣)</sup> .

وكان ابن ميادة عطرًا لبَّاسًا !

وكان يزيد بن الطَّشْرِيَّة ، يعنَى بترجيل جُمَّتِه ؛ فترَف كأنها السَّلاسِل ! وكان في العباس بن الأحنف ؛ آلات الظرف : من جمال المنظر ، ونظافة الثوب ، وفراهة المركب ، وحسن الألفاظ ! .

وقد قال بعض أهل الهند — بعد أن عرَّف البلاغة — وزَيْنُ ذلك كله

(١) العمدة - ١ - ١٣١ .

(٢) عزوب الهمة : بعيدها .

(٣) معاهد التنصيص - ٢ - ١٣٤ .

وبهاؤه ، وحلاوته وسناؤه ، : أن تكون الشماثل موزونة ، والألفاظ معدّلة ،  
واللهجة نقيّة ، فإن وافق ذلك : السنّ ، والسّمّت ، والجمال ، وطول الصمت ،  
فقد تمّ كل التّمام ، وكل كل الكمال ! .  
فجعل للسّمّت — وهو حسن الهيئة — وللجمال ، أثراً في قبول الكلام  
والتنفّش له ! .

### بين الشعر والخطابة في السمت :

ولكن سهل بن هارون لم يشترط ذلك في الخطابة ، فقال : لو أنّ رجلين  
خطباً أو تحدّثاً ، أو احتجّاً ، أو وصفاً ، وكان أحدهما جميلاً جليلاً  
بهياً ، ذا لباس نبيل ، وذا حسب شريف ، وكان الآخر قليلاً ، قميصاً<sup>(١)</sup>  
وباذ<sup>(٢)</sup> الهيئة دميماً ، وخامل الذكر مجهولاً ، ثم كان كلامهما في مقدارٍ  
واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدّع<sup>(٣)</sup> عنهم الجمع ،  
وعامتهم تقضى للقليل الدميم ، على النّيل الجسيم ! وللباذ الهيئة ، على ذى الهيئة !  
ولشغلهم التعجّب منه ، عن مساواة صاحبه ! ولصار التعجّب منه ، سبباً للعجب  
به ! ولكان الإكثار في شأنه ، علة للإكثار في مدحه ؛ لأنّ النفوس كانت  
له أحقر ، ومن بيانه أيّس ، ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم  
يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ما قدروه ، تضاعف حسن كلامه في صدورهم ،  
وكبّر في عيونهم ؛ لأنّ الشئ من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب ، كان  
أبعد في الوهم ! وكلما كان أبعد في الوهم ، كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان  
أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبعد !

ونخرج من كل ذلك : على أن جمال الهندام ، وحسن الشارة ، وأناقة  
الملبس ، مشروطة في الشاعر لا الخطيب ! كما أن الخطيب يجب أن تتوافر فيه  
جهازة الصوت ؛ كما يجب أن تتوافر حلاوة النغم ، وعذوبة الصوت في الشاعر !  
وتعليل ذلك سهل ؛ إذا عرفنا :

(١) القميص : الضئيل الحقير .

(٢) باذ الهيئة — بتشديد الـ ذال — : رث الثياب .

(٣) التصدّع : التفرّق .

أولاً : أن الشعر : فن لطيف ظريف ، رشيق مترَف ، فينبغي أن يصحبه ما يوائمه ويشاكله من الأدوات الحسية والمعنوية .  
 وثانياً : أن الشعر من بضائع الخاصة لا العامة ، والذي يخالط الخاصة ، يجب أن يتزيّياً بزيّهم ، ويكون على هيئاتهم وشاراتهم ، وإلا كان غريباً عليهم ، فاستزروه ومجّوه !  
 ومع ذلك ، فن الصعب علينا ؛ أن نسلّم : بأن الناس يُقبلون على الخطيب القليل ، الضئيل الحقير ، الرثّ الثياب الدميم ، أكثر مما يقبلون على الخطيب الجميل ، الجليل ، النبيل ، البهّيّ الطلعة ، الحسن الملبس .  
 هذا مما تنكره الطباع القويمة ، والأذواق السليمة ، وإذا صح إقبالهم عليه ، فلعله يكون من باب إقبالهم على شيء يلهمهم ويضحكهم ؛ كما يجتمعون لمشاهدة قرد يرقص ، أو حمار غريب الأوصاف !  
 وصفوة القول : أن إجماعهم واقع ، على أن الشاعر يجب أن تجتمع له سمات الأناقة والبهاء .

### معسكر الكرم ومعسكر البخل !

وقد اجتمعت هذه السمات المتقدمة في شعراء كثيرين ، منهم : أشجع السلمى . وأبونواس ، ومسلم بن الوليد ، ودعبل الخزاعي ، والحسين ابن الضحاك ، والعباس بن الأحنف .  
 وقد كان المال يتدفق على أكثرهم تدفق السيل من خزائن الخلفاء والأمراء والولاة والوزراء ، فلا يدخرون منه شيئاً ! وعاشوا في نعيم ورفاهية !  
 ولقد عرف عن أبي نواس : أنه كان محظوظاً لا يدرى ما وصل إليه ! لكنه كان متلافياً سمحاً جواداً ! وكان يتنافس في الإنفاق مع العباس بن الأحنف ، وصريع الغواني : مسلم بن الوليد ! .  
 على حين كان مروان بن أبي حفصة — وقد أعطى مائة ألف دينار ثلاث مرات<sup>(١)</sup> — غير الأعطيات الأخرى — وأبو العتاهية ، يعيشون عيش البخلاء

الخشعين ، ويكثرون الذهب والفضة ، حتى كان مروان يشتري الخبز من البقال : أى أنه لا يخبز في بيته ؛ شأن أهل اليسار !

فلما سمع بقصته يحيى بن خالد البرمكى ، أحضره ووبَّخه ، وقال له : والله ، لكُتبخل أسوأ عليك أثراً من الفقر لو صرت إليه ، فلا تبخل ! .

وكان المهدي يعطى مروان وسلم الخاسر عطية واحدة ، فكان سلم يأتى إلى باب المهدي على البرزون الفاره ، قيمته عشرة آلاف درهم بسرّج ولجام ، ولباسه الخبز والوشى ، وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه ! ويحيى مروان بن أبى حفصة ، عليه فرو كثير الصوف وسراويل وعمامة من كيرباس ، وخف كثير الصوف ، وكساء غليظ ، وهو منتن الرائحة ! وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم<sup>(١)</sup> إليه بخلا ، فإذا قرّم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله ، فقال له قائل : أراك لا تأكل إلا الرأس ! قال : نعم أعرف سعره ، فأمن خيانة الغلام ، ولا أشتري لحمًا فيأكله ويطبّخ منه ! والرأس آكل منه ألواناً : آكل من عينيه لوناً ، ومن غلصمته لوناً ، ومن دماغه لوناً .

وقد كان أبو العتاهية — على أشعاره الزهديات المشهورة ، وتذكيره الناس بالموت ، وتحذيره الدنيا لهم — أقبح شأنًا من مروان ! فقد كان لا يخرج زكاة ماله ! ويعدّ نفقة أولاده زكاة تجزئ عنه ! .

وكان يأكل خبزاً يابساً من رُفاق الفطير ، ويغمسه في اللبن فلا يعلق به شيء ! ولذلك كانوا يقولون : أبو العتاهية لا يأتدم !

وكان له جار ضعيف سيئ الحال ، يلتقط النوى ! وكان يمرّ به طرفى النار ! ومكث على هذه الحال عشرين سنة ! حتى مات الرجل ولم يتصدق عليه بدانق ! بل كان يتصدق عليه بالدعاء ! و « الدعاء إحدى الصدقتين » ولكن ممّن لا يملك شيئاً .

وكان له خادم يشقى في خدمته كل الشقاء ، ولا يُجرى عليه غير رغيفين في اليوم ! .

(١) القرم — كسب — شدة شهوة اللحم .

وظل الخادم جائعاً صابراً حتى مات ! فكفّنه في إزار وفراش له بال ! .  
فقال له ، محمد بن عيسى المخزومي : سبحان الله ! خادم قديم الحرمة ،  
طويل الخدمة ، واجب الحق ، تكفّنه في ثوب خالّيق ؛ وكان يكفيه  
دينار ؟ ! .

فقال : إنه يصير إلى البلى ، والحي أولى بالجديد من الميت ! .  
فقال له المخزومي : يرحمك الله — أبا إسحاق — ! فقد عوّده الاقتصاد  
حيّاً وميتاً<sup>(١)</sup> ! .

ولا يقل عن هؤلاء بخلاً وتقتيراً مع كثرة كسبه : أبو عبادة البحتري !  
ومن العجيب أن يخرج منه — مع قذارته — هذا الشعر الذي يشبه الوشي  
المنشور ، والزهر المنصور ! ولكن أليس النرجس يخرج من البصل ، ويلتقط  
الماس من الفحم ! إن مثل مروان وأبي العتاهية وأمثالهما قديماً وحديثاً ،  
لا يستحقون أن تروى أشعارهم !

وهم سبة للشعر ، وحِطّة للشعراء ! وصدق أحمد بن أبي فنن حيث يقول :  
وإنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللُّومِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى الْبَخْلِ الرِّجَالَ وَيَبْخُلُ  
وَفِي مَعْنَاهُ يَقُولُ أَبُو تَمَام :

أَلُّومٌ مَنْ بَخِلْتُ يَدَاهُ وَأَغْتَدَى لِلْبُخْلِ تَرْبُيَا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا<sup>(٢)</sup>

( ١ ) أبو العتاهية للأستاذ محمد برائق — ٦٧ — ٦٨ — ٦٩ .

( ٢ ) الترب : من ولد مَعَك ، والمراد : الصديق .

## الفصل العاشر

### اختيار البحور المناسبة

أن يختار البحور التي تتواءم صوته قوة وضعفًا ؛ فالشاعر الطاعن في السن والشاعر الضعيف الجسم ، والشاعر الخفيض الصوت ، والشاعر المريض بأمراض الصدر « كالربو والنزلات الشعبية » وغيرها ، يعجزهم أن ينشدوا من البحر الطويل ، أو البحر البسيط . لطولهما الذي يجعلهما أشبه شيء بالخطبة ، حتى ليحتاج المنشد لهما ، أن ياتقط أنفاسه عقب كل بيت ! .

#### والأول :

فعولن مفاعيل فعولن مفاعل : مرتين .

#### والثاني :

مستفعل فاعلن مستفعل فاعلن : مرتين .

فهما كما ترى أكثر البحور طولاً . وهما لذلك لا يستطيع أن يسبح فيهما إلا ذو صدر قوى عريض ، ونفّس مديد ، وحجارة ضخمة ؛ يستطيع صاحبها أن يسمع الصفوف النائية . ويملاً الأذان جارية وجلجلة ! فيشد السامعين إليه ، فلا ينصرفون عنه .

وخير لمن لم يرزق موهبة الصوت ، أن يلجأ إلى البحور المتوسطة الطول كالكمال والرجز والوافر والخفيف ، أو القصيرة كالرمل والمتقارب والمجتث ، أو المجزوءات ، وكل شاعر أعرف بنفسه .

وقد كنت في شبابي أختار للإنشاء والإنشاد البحور الطويلة — وبخاصة الطويل — الذي أحبه بطبعي ، وتنساق معه عواطفى ، حتى لتذرف دموعى

حين أقرأ شعراً منه ، أو أنظم شعراً منه !  
 ثم شعرت في الكهولة وما بعدها : أن صوتي لا يواتيني على الإنشاد من  
 هذه البحور ، فعمدت إلى قصار الأوزان ، وسبحان من يغير ولا يتغير ! .  
 ..... ومن ذا الذي يا عَزُّ لا يتغير

وبصرف النظر عن المنشد ، لا ريب أن لبحور الشعر وأوزانه أثراً في  
 الأداء ، وفي قوة الأسلوب ، وموسيقى العبارة ؛ فقد كان ابن العميد يرى أن  
 الشعراء المحدثين ؛ لا يحسنون القول من بحر المديد ، وأن على الشاعر أن يتخير  
 للمعنى الذي اعتمده وقصده ، أحسن وزن يلائمه ، وأحسن قافية .  
 وتقطع بحر المديد هو :

فاعلاتن فاعل فاعلاتن فاعلن فاعلاتن<sup>(١)</sup>  
 مثل<sup>(٢)</sup> :

يا طويل الهجر لا تنس وضلي واشتغالي بك عن كل شغل  
 يا هلالاً فوق جيد غزال وقضيباً تحته دِعْصُ رمل<sup>(٣)</sup>  
 وابن العميد صادق في هذا ؛ فأنا لم أقرأ شعراً في هذا البحر إلا ما جاء في  
 التمثيل له ، ولم أقرأ لشاعر من شعراء العصر بيتاً واحداً منه على ما أظن ! وأنا  
 لا أستطيع النظم منه ، لأنه يشبه على " بالبحر الخفيف ، وهو :  
 فاعلاتن مستفعلن فاعلات : مرتين .

والبحر المضارع : قليل الاستعمال جداً ، ومنهم من لم يعده بحراً ،  
 ولا جاء فيه شعر معروف ! وقيل : إنه لم يسمع من العرب . ويقول العتاني في

( ١ ) العقد الفريد - ٤ - ٤٩ .

( ٢ ) المديد : مجزوء كله وله ثلاثة أعاريض وستة أضرب ، وقد مثلنا للعروض والضرب

المجزئين .

( ٣ ) الدعص والدعصة - بكسر الدال - : قطعة من الرمل مستديرة ، والكثيب المجتمع ، أو الصغير .

كتابته « نزهة الأبصار في أوزان الأشعار » : إن الخليل جعله جنساً ، وأحسبه قاسه ، وما أدري ما روى في كتب العروض : أم مصنوع هو ، أم مسموع من العرب <sup>(١)</sup> ؟

ولا شك أن هناك صلة بين المعاني والأعاريض الشعرية <sup>(٢)</sup> ؛ فن المعاني ما هو جاد أو حار أو جياش أو صاحب ! فلا يؤدّي إلا بنفَس طويل ، ولا تلائمهُ إلا الأعاريض الطويلة .

ومنها ما هو رقيق ، أو هادئ ، أو ماجن ، أو راقص ؛ فيجب أن يصاغ في تفاعيل تناسبه .

فالبحر الطويل مثلاً يتسع لكثير من المعاني ؛ فيصلح للفخر والحماسة والرياء ، والوصف والتاريخ ، والشكوى والألم ، والنظرات الكونية .

والبسيط يقرب من الطويل ، وإن كان لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني ، ولا يلين لينه للتصرف في التراكيب ، مع تساوى أجزاء البحرين ، ولكنه يفوقه رقة وجزالة ، ولهذا قلّ في شعر الجاهلية ، وكثر في شعر المولّدين .

وقد كان لبحر الطويل في عصور الفحولة والقوة ، القيدُح المعلى بين البحور في كثرة النظم منه ؛ فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربي القديم من هذا الوزن .

وهو وأخوه البسيط يعدان بحرى الجزالة والفخامة ؛ فيغلب على المنظوم منهما الرصانة ، والمتانة ، وشدة الأسر . وروعة السرد ، وصلابة الحوك ؛ ولذلك يحتاجان إلى ثقافة لغوية ضخمة . وثروة من الأخيصة والمعاني واسعة ، لا تتفق لكل شاعر .

فالمنظم منهما مزلة للشاعر الضحل . القليل الحظ من الأساليب العربية ، وامتحان قاس من الخير ألا يدخله إلا الفائقون ؛ لأن كلا منهما في الواقع بمثابة

(١) خزائن الأدب لابن حجة - ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) انظر مقدمة الإلياذة البستاني - تاريخ النقد الأدبي للمرحوم طه إبراهيم - أصول النقد الأدبي للشايب - موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس .



خطبة — وإن كانت خطبة شعرية — لا بد أن تصاغ صياغة خاصة ، وتستدعى  
تعبيرات كثيرة ، وأفكاراً جمّة ، ومسالك دقيقة ! .  
وأدنى نظرة إلى الأبيات الآتية — وهى من الطويل ثم من البسيط — تدلّ  
على هذا :

يقول الفرزدق :

لنا العزّة القمّعاء والعدد الذى عليه إذا عدّ الحصى يتخلف  
ومنا الذى لا ينطق الناس عنده ولكن هو المستأذن المتصرف  
ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا  
وتقول حرقة بنت النعمان بن المنذر :

فبيننا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف  
فتباً لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا وتصرف  
ويقول إبراهيم بن العباس الصولى — على لسان المتوكل العباسى — إلى أهل  
حمص — :

أناة فإن لم تغنّ عقب بعدها وعيداً فإن لم يغنّ أغنت عزائمها  
ويقول المتنبي :

نفور عرتها نفرة فتجاذبت سموالها والحلى والخضر والرّدف  
ويقول أبو فراس الحمدانى :

وللوفر متلافٌ ، وللحمد جامع وللشرّ تراك ، وللخير فاعل

ويقول ابن مقلة :

فهبك عدوى لا صديقى فربما رأيت الأعادى يرحمون الأعاديا

ويقول المعري :

ثلاثة أيام هي الدهر كله      وما هنَّ غيرُ الأَمْس واليوم والغد

ويقول شوقي :

من خانته الدهر خانتَه صنائعه      وعاد ذنباً له ما كان إحسانا

ويقول :

هو الدهر ميلادٌ فشغلَ فمأتم      فذكر كما أبقى الصدى ذاهب الصوت

ويقول العقاد في الشاعر :

تجمعت الأضداد فيه فحكمة      وحمق ، وقلب ذائب ، وجمود

ويقول :

قل لابن تسعين لا تحزن فذا رجل      دون الثلاثين قد ساواك في الهرم

ويقول الأعشى :

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضها      تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل

وتقول الخنساء :

حمال ألويةٍ ، هباط أودويةٍ      شهاد أندية للجيش جرار

ويقول أبو تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب      في حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعب

ويقول ابن الرومي :

أجنتُ لك الوجدَ أغصانُ وكُثبانُ      فيهنَّ نوعان : تفاحٌ ورمان

ويقول الطغرأى :

غاض الوفاء وفاض الغدرُ وانفرجت      مسافةُ الخُلف بين القول والعمل

ويقول ابن نُبّاة :

هذا كلامى وذا حظّى فيا عجباً      منى لشروة لفظٍ ، وافتقار يد

ويقول البوصيرى يمدح الرسول — عليه الصلاة والسلام — :

كالزهر فى ترفٍ والبدرفى شرفٍ      والبحر فى كرمٍ ، والدهر فى همم

فهذه الأبيات السالفة التى اخترتها من محفوظى دون تروٍّ ونظرٍ ، ومثلها كل جيسّد من هذين البحرين ، تراها قوية النسيج ، محكمة الصياغة ، جزلة البناء ، مشحونة بالمعاني والأفكار والأخيلة والحكم ، إلى ضروب من البلاغات كالجناس والطباق ، وحسن التقسيم ، وحسن النسق ، والتّوشيع وغيرها ، مما ساعد على وجوده ؛ اتساع دائرة البيت ، وامتداد طرفيه .

ومنها ما يختصر قصة ، أو يصور تاريخاً ، أو يتضمن تجارب عدّة ، أو يقع فصلاً فى قضية إلى غير ذلك .

والكامل يصلح لأكثر الموضوعات ، وهو فى الخبر أجود منه فى الإنشاء وأقرب إلى الرقة ، لذلك يصلح لقصّ الأخبار ، وللمعاني التقريرية . وإذا دخله الحذف وجاد نظمه ، بات مطرباً مرقّصاً كقولهم :

يادمية نُصِبَتْ لِمُحْتَكِفٍ      بل ظبية أوفت على شرف

وكقول ابن عبد ربه :

أما الخليط فشدّ ما ذهبوا      بانوا ولم يقضوا الذى يجب  
فالدار بعدهم كوشّم يد      يا دارُ فيك وفيهم العجبُ

وكذلك إذا كان الضرب أحذّ مضمراً ؛ كقول ابن عبد ربه :

يوم المحب لطوله شهر والشهر يُحسب أنه دهر

والكامل هو البحر المفضل لشوقى ، ومحمود غنيم ، وأنا لا أميل إليه ، ولا تستجيب إليه عواطفى ، ونظمى منه قليل .

والوافر ألين البحور : يشتد إذا شدّته ، ويرق إذا رققته ، وأكثر ما يجود به النظم فى الفخر ، وفيه تجود المرائى .

والخفيف أخفّ البحور على الطبع ، وأطلاها للسمع ، يشبه الوافر ليناً ، ولكنه أكثر سهولة وأقرب انسجاماً ، وإذا جاد نظمه رأيته سهلاً ممتعاً ؛ لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنشور ، وليس فى جميع بحور الشعر بحر نظيره ، يصلح للتصرف بجميع المعانى .

وهو البحر المفضل للجارم ولـ .

والرّمّل : بحر الرقة ، فيجود نظمه فى الأحزان والأفراح والزّهرىات ، ولهذا لعب به الأندلسيون كلّ ملعّب ، وأخرجوا منه ضروب الموشحات . وهو غير كثير فى الشعر الجاهلى .

ومن أمثلته :

أنا فى اللذة مخلوع العذارِ هائم فى حبّ ظبي ذى احورارِ

صفرة فى حمرة فى خده جمعت روضة وردٍ ، وبهار

والسريع : بحر يتدفق سلاسة وعذوبة ، فيحسن فيه الوصف ، وتمثيل العواطف الفياضة ، وهو قليل فى الشعر الجاهلى ، ومن أمثلته :

بكيت حتى لم أدع عبرةً إذ حملوا الهودج فوق القلوص

بكاء يعقوب على يوسف حتى شفى غلّته بالقميص

والمتقارب : بحر فيه رنة ونغمة مطربة ، على شدة مأنوسة ، وهو أصلح للعنف

والسير السريع !

والمندارك : يصلح لزحف جيش ، أو وقع مطر أو سلاح ، وهو قليل في الشعر القديم .

والرجز : ويسمونه : حمارة الشعراء ! وهو صالح لنظم العلوم كالفقه والنحو والمنطق ، فهو أسهل البحور نظماً ، وأقلها ملاءمة لتصوير الانفعالات .

وأنا أصرّح : بأن الرجز ليس بأسهل من غيره إلا في نظم « المتون » وأشباهاها . وأما حين يتعلق الأمر بأغراض الشعر الأصلية المتفجرة من قرارة الوجدانات . النافحة بعقب العواطف ، فغيره أيسر وأطوع وأدمث ، ولو رحنا نستفتي جمهرة الشعراء المطبوعين لتابعونا على ذلك ، وأنا يثقل علىّ النظم منه ، لذلك لم أخضه إلا قليلاً<sup>(١)</sup> .

والهزج ، والمجثث ، والمقتضب ، وسائر البحور القصيرة ، تصلح للأناشيد والتوشیحات الخفيفة . وأفكار الهزل والمجون .

### مثال الهزج :

أيا من لام في الحبِّ      ولم يعلم جوى قلبي  
إلى هند صبا قلبي      وهندٌ مثلها يُصْبي

### مثال المنسرح :

كأنما بات ناعماً جَدِلاً      في جنة الخلد من يعانقها  
دعني أمت من هوى مخدرة      تعلّق نفسي بها علائقها

### مثال المقتضب :

يا مليحة الدّعج      هل لديك من فرج

## مثال المجتث :

وشادن      ذى      دلال      معصب      بالجمال  
يضمن      أن      يحتويه      معى      ظلام      الليالى

## مثال المتقارب :

سل الربع عن ساكنيه      فإني      خرست فما أستطيع السؤال  
ولا تعجلنى      هداك      المليك      فإن      لكل      مقام      مقالا

وبحور الخليل — كما هو معروف — خمسة عشر وزناً ، وزاد الأنخفش بحر المتدارك ، وابتدع العباسيون من عكس الدوائر ستة بحور هى المستطيل وهو مقلوب الطويل ، والممتد وهو مقلوب المديد ، والمتوافر وهو محرف الرمل ، والمتشد وهو مقلوب المجتث ، والمطرود والمنسرد وهما صورتان من مقلوب المضارع . وقد انفرد أبو العتاهية باستحداث وزن حاكى به مدق القصار<sup>(١)</sup> ، وقال على غراره :

للمنون دائرات يُدرن صرْفها      حتى      ينتقينا      واحداً واحداً

وقد انتقد عليه : بأنه خرج عن العروض! فقال : «أنا أكبر من العروض» .

## العلة فى تسمية البحور :

تسمية البحور لم تأت اعتباطاً ، وإنما هى مشتقة من صفاتها . فعن الأنخفش قال : سألت الخليل — بعد أن عمل كتاب العروض — : لم سميت الطويل طويلاً ؟ .

قال : لأنه طال بتمام أجزائه .

قلت : فالبسيط ؟ قال : لأنه انبسط عن مدى الطويل ، وجاء وسطه

( ١ ) القصار — كشاد — : بحور الثياب .

« فَعَلَيْن » وآخره « فعلن » .

قلت : فالمديد ؟ قال : لتمدد سُبَاعِيَّة حول خُمَاسِيَّة .

قلت : فالوافر ؟ قال : لوفور أَجْزَائِهِ وتبدأ بوتد .

قلت : فالكامل ؟ قال : لأن فيه ثلاثين حركة ، لم تجتمع في غيره من

الشعر .

قلت : فالهزج ؟ قال : لأنه يضطرب : شبه بهزج الصوت .

قلت : فالرجز ؟ قال : لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام .

قلت : فالرمل ؟ قال : لأنه شبه برمل<sup>(١)</sup> الحصير : لضم بعضه

إلى بعض .

قلت : فالسريع ؟ قال : لأنه يسرع على اللسان .

قلت : فالمنسرح ؟ قال : لانسراحه وسهولته .

قلت : فالخفيف ؟ قال : لأنه أخف السبَاعِيَّات .

قلت : فالمقتضب ؟ قال : لأنه اقتضب من السريع .

قلت : فالمضارع ؟ قال : لأنه ضارع المقتضب .

قلت : فالجثث ؟ قال : لأنه اجتث : أى قطع من طويل دائرته .

قلت : فالمتقارب ؟ قال : لتقارب أَجْزَائِهِ : لأنها خماسية كلها

يشبه بعضها بعضاً<sup>(٢)</sup> .

ويجب أن يكون معروفاً : أنه ليس هناك قيمة للعروض ولا للبحور — على اختلاف ضروبها وأعاريضها — إذا لم يكن الشاعر مطبوعاً ! إنه بدون الطبع والملكة، سيغرق في هذه البحور ويختنق ! .

إن الشعراء المطبوعين يقرضون الشعر على ما خيّلَت نفوسهم ، ويجرون فيها وراء الموسيقى ، التى تنبع من قلوبهم ، وتقودهم إلى ما يريدون من غير كدّ وجهد ، ولا تعمل واجتلاب .

(١) رمل الحصير : خصوصاً .

(٢) العمدة — ١ — ٨٩ .

وكثير منهم يجهل هذه البحور ، ولا يعرف منها إلا أسماءها ، وإذا سأله عن البحر الذى صاغ منه قصيدته ، أجاب بأنه لا يعرفه ! وكثير منهم يعرفها ولا يستشيرها حين ينظم ، إلا إذا اشتبه عليه الأمر فى بيت من الأبيات ! وأستطيع أن أجزم بأننى لم أحتج قط إلى العروض ، حتى فى عهد القرزفة (١) ! بل حملت نفسى على نسيان ما عرفت منه بحكم الدراسة .

وكثير ما يسألنى تلاميذى عن أنواع من البحور القصيرة ، التى نظمت منها بعض شعرى ، فأحيلهم على أساتذة العروض بالكلية ! فإذا كان بعض الشعراء درس العروض ، فإن ذلك من باب العلم بالشيء ، وليكمل نفسه بمعرفة ما يمت إلى الشعر بسبب ، وبخاصة أن بعض الشعراء ؛ كبشّار والمتنبى والسّلامى وناجى والأسمر ، نظموا الشعر فى سنّ صغيرة ، لا تسمح لهم بفهم العروض .

وعلمنا الوزن والقوافى - وإن خصّ الشعر وحده - فليست الضرورة داعية إليهما ، لسهولة وجودهما فى طباع أكثر الناس من غير تعلّم .

ومما يدلّ على ذلك : أن جميع الشعر الجيد المستشهد به ، إنّما هو لمن قبل وضع الكتب فى العروض والقوافى ، ولو كانت الضرورة إلى ذلك داعية لكان جميع هذا الشعر فاسداً أو أكثره .

ثم ما نرى أيضاً من استغناء الناس عن هذا العلم ، بعد واضعيه إلى هذا الوقت ؛ فإن من يعلمه ومن لا يعلمه ، ليس يعوّل فى شعر إذا أراد إلاّ على ذوقه ، دون الرجوع إليه ، فكأن هذا العلم مما يقال فيه : إن الجهل به غير ضائر ! وما كانت هذه حاله ، فليست تدعو إليه ضرورة (٢) !

والذى نعنيه : أن الشعراء المطبوعين ، تقودهم إلى صحة الوزن ؛ رهاقة أذواقهم ، وسلامة طبائعهم ، واستقامة سلائقهم ، وصفاء ملكاتهم ، وإن وقعوا فى خلل ، فسرعان ما يعودون إلى الصواب ، بهداية حاستهم الفنية النافذة التى لا تُسبغ النّشاذ !

(١) القرزفة : أى وقت نظم الشعر الأول غير الجيد .

(٢) نقد الشعر - ١٢ .



ومن قول ابن رشيقي في هذا : وقد ذكرت ما يليق بهذا الموضع ؛ ليعرفه المتعلم إن شاء غير متكلف به شعراً ، إلا ما ساعد عليه الطبع ، وصح له فيه الذوق ؛ لأنني وجدت تكلف العمل بالعلم في كل أمر من الأمور أوفق إلا في الشعر خاصة ، فإن عمله بالطبع دون العروض أجود ؛ لما في العروض من المساحة في الزحاف ، وهو مما يهجن الشعر ، ويذهب برونقه<sup>(١)</sup> .

إن أساس الشعر الطبع ، ولا ينفع مصنوع ما لم يكن مطبوع ، وإذا عدم الإنسان هذه المنحة العلوية ، فمن الحزم له أن يتجه إلى غيرها من الصناعات ، فإن النفوس لا تحمل بالقوة على ما تكره ، ولا تستجيب إلى غير دواعي الفطرة ، وذلك كالزناد الخالي من النار ، لا يورى مهما ألححت عليه بالقدح ، وكالسيف الباتر لا يعمل إلا في يدي بطل !! .

وما أجمل قول بعضهم :

وترى الحسام على جراءة حدّه      مثل الجبان يكفّ كل جبان

ولله در المعري حيث يقول :

وليس كقضييب الهنّد إلا كنايبتٍ      من القَضْب في كفّ الهدان المُعَرَّد<sup>(٢)</sup>

وما أحسن قول البارودي :

إذا القلب لم ينصرّك في كلّ موطنٍ      فما السيف إلا آلة حمّلها إدّ<sup>(٣)</sup>

ويقول المبرد : ليس أحد في زمانى إلا وهو يسألنى عن مشكل من معانى القرآن والحديث ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربية ؛ فأنا إمام الناس في زمانى هذا ! وإذا عرضت لى حاجة إلى بعض إخوانى ، وأردت أن أكتب إليه

(١) العمدة - ١ - ٩٩ .

(٢) قضيب الهند : السيف . والقضب : من معانيه القت . والهدان ، ككتاب : الأحقق الثقيل . والمعرّد : الهارب .

(٣) الإد - بكسر الهمزة وتشديد الدال - : الأمر الفظيع والداهية والمنكر .

شيئاً في أمرها ، أحجم عن ذلك ؛ لأنني أرتب المعنى في نفسي ، ثم أحاول أن أصوغه بالفاظ ، فلا أستطيع ذلك ! .

ويقول ابن « دقيق العيد » لتلميذه « ابن سيد الناس » قل لهؤلاء « علماء المعاني والبيان والبديع » : أحسنون أن تقولوا مثل قول المتنبي — وفيه مقابلة خمسة بخمسة — ؟ :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنشئ وبياض الصبح يُغري بي

ويسمونه : أمير شعر المتنبي !

فإن قالوا لك : لا ! .

فقل : أيّ فائدة فيما تصنعونه ؟

يريد بذلك : أن العمل غير العلم ، والمباشرة دون الوصف !

وأن الملكة غير التصنع والتّصنيع !

فأنت ترى — مما سلف — أن معرفة العروض قد تضرّ الشاعر الملهم المطبوع

الموهوب ، وتعكّر صفو فطرته ، وتلبّد سماءها بالغيوم ، وتقيّد انطلاقه الموسيقي

وتضع السدود أمام تحرّره وتدفعه ! وتسوقه إلى ارتكاب بعض الزخافات والرّخص

التي تشوّه الوزن ، وتغضّ من إيقاعه العذب ، وتوقع الاضطراب في تنغيمة ،

ولولا معرفته بها ما أقدم على ارتكابها !

وهي وإن كانت جائزة عروضياً ، فليس كل ما يجوز وقوعه ، يجوز فعله !

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التّمام

## الفصل الحادى عشر

### اختيار القوافى

أن يختار القوافى الحفيفة الظلّ ، الحلوة النغمة ، العذبة الرّنين ؛ فإنّ حظّ جودة القافية — وإن كانت مفردة — أرفع من حظ سائر البيت ؛ كما يقول شبيب بن شيبّة (١) .

وهى قوام الشعر وملاكه ، وأظهر سماته ، وأشرف أجزائه .  
وهى شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية (٢) .

ثم ألا ترى أن العناية فى الشعر ، إنما هى بالقوافى ، لأنها المقاطع ، وفى السجع كمثّل ذلك .

وآخر السّجعة والقافية أشرف عندهم من أولّها ، والعناية بها أمّس ، والحشدُ عليها أوفى وأهمّ ! .  
ولذلك كلما تطرّف الحرف فى القافية ، ازدادوا به عناية ، ومحافضة على حكمه (٣) .

وإذا كان نقّاد العرب يقولون عنها : إن الشعر لا يسمّى شعراً بدونها ، فإن لها مكانتها أيضاً عند نقاد الغرب ! « فهو جو » يقول : هى مبدأ أوزاننا .

و « سانت بيف » يقول : هى الانسجام الوحيد فى الشعر .

وفى معجم الأدب الروسى المترجم إلى الإنجليزية يقول المترجمون : إن

(١) البيان والتبيين - ١ - ١٠٦ .

(٢) العمدة - ١ - ٩٩ .

(٣) الخصائص - ١ - ٨٥ - ٨٦ .

اللغة الروسية غنيّة بالقوافي إلى الحد الذي يسمح بتكرار القافية في المقاطع المتوالية مرتين وثلاثاً، وأكثر من ذلك في بعض الأبيات .  
ويجب على الشاعر بعد ذلك ؛ أن يتجنّب ما أنكر على من تقدّموه من العيوب المعروفة .

وقد فخر بعض الشعراء بخلوّ شعرهم منها ! فقال ذو الرّمة :  
وشعر قد أرقّت له طريفٍ أُجنبه المُساند والمُحالا<sup>(١)</sup>  
وقال جرير :

فلا إقواء إذ مرّس القوافي بأفواه الرواة ولا سنادا<sup>(٢)</sup>  
وقال عدّي بن الرّقاع العامليّ :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوم مِيلها وسنادها  
نظرَ المثقّف في كُعب قناته حتى يُقيم ثِقافه مُنادها<sup>(٣)</sup>  
وقال السيد الحميريّ :

وإنّ لساني مقولٌ لا يخونني وإنّي لما آتني من الأمر مُتقنٌ  
أحوك ولا أقوى ولست بلاحنٍ وكم قائلٍ للشعر يُقوى ويلحن<sup>(٤)</sup>

وقال إسحاق الموصليّ - وذكر قصيدة - :

فلما أقمتُ المِيلَ منها ولم أدعُ بها أوداً ممّا يُعاب ولا كسراً

(١) المساند : ما فيه سناد ، وهو اختلاف الردين في الشعر مثل لين - بكسر اللام - وبين - بفتح الباء - والمحال : الباطل .  
(٢) مرّس القوافي : مأخوذ من مرّس الحبل من باب نصر ، إذا وقع في أحد جاذبي البكرة ، والمراد : صعوبتها . والإقواء : مخالفة القوافي برفع بيت وجر آخر .  
(٣) المتاد : المائل .  
(٤) أقوى : أتى بالإقواء ، وهو مخالفة القوافي برفع بيت وجر آخر .

أَتَيْتِكَ أَهْدِيهَا إِلَيْكَ تَقَرُّبًا      وَشُكْرًا لِنُعْمَى مِنْكَ تَسْتَغْرِقُ الشُّكْرًا  
وقال أبو العَمَيْشَل :

أَقَمْتُ اعْوِجَاجَ الشَّعْرِ حَتَّى تَرَكَتَهُ      قَدَاحَ ثِقَافِي نَابِلٍ وَابْنِ نَابِلٍ<sup>(١)</sup>  
فَدُونَكُمْ مَاهٍ لَا بِمَنْتَشِرِ الْقُوَى      ضَعِيفٌ ، وَلَا مُسْتَغْلِقِ مُتَعَاظِلِ  
قَصَائِدِ أَشْبَاهِ كَأَنَّ مُتَوْنَهَا      مَتُونُ أَنْابِيبِ الْوَشِيجِ الْعَوَامِلِ<sup>(٢)</sup>  
وقال أبو تمام :

مُنْزَهَةٌ عَنِ السَّرَقِ الْمُورَى      مُكَرَّمَةٌ عَنِ الْمَعْنَى الْمُعَادِ  
وقال أبو حاتم سهل بن محمد السَّجِسْتَانِي :

خَذْهَا إِلَيْكَ هَدِيَّةً مِنْ شَاعِرٍ      لَا يَسْتَثِيبُ ثَوَابَهَا إِهْدَاؤُهُ  
نَظْمُ ابْنِ آدَابٍ تَنْخَلَّ شَعْرُهُ      لَمْ يَمَحْ رَوْنَقَ شَعْرِهِ إِكْفَاؤُهُ<sup>(٣)</sup>  
لَمْ يُقَوِّ فِيهِ وَلَمْ يُسَانِدْهُ وَلَمْ      يُوْطِئْ فَيُوهِي نَظْمَهُ إِيطَاؤُهُ<sup>(٤)</sup>

وقد ذكروا : أن ذا الرمة دخل مسجد الكوفة — حين قدِمَها — فرمى ببصره  
فرأى الكميت والطَّرِمَّاحَ فقمصدهما .  
ثم جلس وقال للكميت : أَسْمَعْنِي شَيْئًا يَا أَبَا الْمُسْتَهِيلِ ، فَأُنْشِدَهُ  
قوله :

أَبَتْ هَذِهِ النَّفْسُ إِلَّا ادَّكَارًا .....  
حتى على آخرها .

( ١ ) القداح : السهام قبل أن تراش ؛ جمع قدح بالكسر . والنابل : صاحب النبال وصانعها .  
( ٢ ) الوشيج : شجر الرماح . والعوامل : صدور الرماح .  
( ٣ ) الإكفاء : تنويع الروى بحرفين متقاربين في المخرج مثل الليل وانتقين .  
( ٤ ) يوطئ : واطأ في الشعر ، وأوطأ فيه وأوطأه : كرر القافية لفظاً ومعنى قبل سبعة أبيات .

فقال ذو الرمة : أحسنت يا أبا المستهلّ في ترقيص هذه القوافي ! .  
ولا شك أن ترقيص القوافي يجعلها ترقص سامعها ! .

### عيوب القوافي :

وللقوافي عيوب كثيرة يجب أن يعرفها الشعراء حتى يتجنبوها ، ولا سيما  
شعراء الإنشاد ؛ لأنها تجعله قبيحاً في الأسماع ! بل إنها تسكّنها سكناً !  
منها :

### التخنث :

ويروون في هذا : أن قيس بن الرقيّات ، أنشد عبد الملك بن مروان  
قوله :

إِنَّ الحَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ      أَوْجَعَنِي وَقَرَعَن مَرَوْتِيَه<sup>(١)</sup>  
وَجَبَبَنِي جَبَّ السَّنامِ وَلَمْ      يَتَرَكَّنْ رِيشاً فِي مَنَاجِيَه  
فقال له : أحسنت ! لولا أنك خنّثت في قوافيك !<sup>(٢)</sup> .

وللأواء الدمشقي قصيدتان ، تعدّان الغاية في التخنث ومطلع الأولى :

طاف بشمسَيْن من عُقَارَيْن      فِي ذَهَبَيْن جَوْهَرَيْن

### ومطلع الثانية :

صَوْلَجَ لَأَمَيْنَ فِي عِذَارَيْن      فِي ذَهَبَيْن جَوْهَرَيْن<sup>(٣)</sup>

ولصنفيّ الدين الحليّ ، قصيدة سخيقة ، عددها أربعة وعشرون بيتاً ،  
أولها :

( ١ ) قرع مروته : دق وضرب . والمروة : الحجر الأبيض البراق يورى النار ، كناية عن  
إضعافه وإيهانه .

( ٢ ) المزه - ٢ - ٢٣٣ .

( ٣ ) العذار : شعر الخد ، ويشبه باللام ، وصوبله : جعله كالصوبلجان .

نُقِيطُ. مِنْ مُسَيْكَ فِي وَرِيدٍ خُونِكَ أَوْ وَسِيمٌ فِي خُدَيْدٍ<sup>(١)</sup>

ولابن منير الطرابلسي؛ قصيدة طويلة من هذا النوع المُنْتِ القوافي أولها :

مَنْ رَكَّبَ الْبَدْرَ فِي صَدْرِ الرَّدِّيْنِ وَمَوَّهَ السَّحَرِ فِي حَدِّ الْيَمَانِ<sup>(٢)</sup>؟

ويحسن أن يختار القوافي التي فيها مدٌّ إقبال الروي وبعده ، فهذا المدّ يعطى للمنشد فرصة ؛ لاستغلال مواهبه الصوتية في الإنشاد ، استغلالاً ينشر في الجوّ ضجة وجلابة شديدين ! .

ويتصل بذلك الشعر المُنْتِ ما يسمّى بالشعر البارد ، كقول الفند الرّماني :

أَيَا تَمَلِكُ يَا تَمَلِي وَذَاتَ الطَّوْقِ وَالْحِجْلِ<sup>(٣)</sup>  
ذَرِينِي وَذَرِي عَذْلِي فَإِنَّ الْعَذْلَ كَالْقَتْلِ

ومن البارد المفرط في اللين ، قول بعضهم :

يَا رَبِّ قَدْ عِيلَ صَبْرِي وَضَاقَ بِالْحَبِّ صَدْرِي  
وَاشْتَدَّ شَوْقِي وَوَجَدِي وَسِيدِي لَيْسَ يَدْرِي  
مُخَفَّلٌ عَنْ عَذَابِي وَلَيْسَ يَرْحَمُ ضُرِّي  
إِنْ كَانَ أُعْطِيَ صَبْرًا فَلَسْتُ أَمْلِكُ صَبْرِي  
أَنَا الْفِدَى لَغْزَالِ دَنَا فَقَبَّلَ نَحْرِي  
وَقَالَ لِي مِنْ قَرِيبٍ يَا لَيْتَ بَيْتِكَ قَبْرِي

(١) يريد : أخالك : نقط من المسك في الورد ، أم هو وسيم في الخد ؟

(٢) الرديني : الرمح منسوب إلى ردينة زوجة سمهر وكانا يصنعان الرماح .

(٣) الحجل - بكسر الحاء وفتحها - : الخلل .

وقالوا : أبرد ما قيل ، قول أبي الشيص :

وناعس لو يذوق الحب مانعسا . بلى عسى أن يرى طيفَ الحبيب عسى  
وللهوى جرسٌ يُننى الرُقَادُ به فكلّما كدت أُغْفى حرّك الجرسا

فقتل هذا الشعر لو أنشد في ناد أو سامر ، لما جُوزى صاحبه بأقلّ من  
أن يؤخذ برجله ويجر ! .

ومن قول بعضهم : الشعر : شعران : جيد محكّك — أى منقح — وردىء  
مضحك ! . ولا شيء أثقل من الشعر الوسط ، والغناء الوسط ! وقد قال ابن  
الرومى يهجو ابن طيفور :

عدمك يابن أبى الطاهر وأطعمت ثكلك من شاعر  
فما أنت سُخْن ولا بارد وما بين ذاك سوى الفاتر  
وأنت لذلك تُغنى النفوس تغشية الفاتر الخائر

### الاستدعاء :

وهو ألا يكون للقافية فائدة إلا "كونها قافية فقط ! فتخلو حينئذ من المعنى  
كقول عدى القرشى — أنشده قدامة — :

وَوُقِيتَ الْحَتُوفَ مِنْ وَارِثٍ وَ لِ وَأَبْقَاكَ صَالِحاً رَبُّ هُودِ  
فإنه لم يأت لهود النبى — عليه السلام — ههنا معنى إلا "كونه قافية ! .  
وما أعجب قول السيد الحميرى :

أقسم بالفجر وبالعشر والشفع ووتر ورب لقمان  
فى مُنْزَلٍ مُحَكَّمٍ ناطق بنور آيات وبرهان  
فالفجر فجرٌ الصبح والعشر عشر النحر والشفع نجيان  
محمد وابن أبى طالب والوتر ربّ العزة الباني



باني سمواتٍ بناها بلا تقدير إنس لا ولا جان  
وفيها يقول ابن رشيقي : فانظر إلى قوله : « رب لقمان » ما أكثر قلقه  
وأشد ركافته ! .

وأما قوله : الباني ، فقد خرج فيه من حدّ اللين والبرد ، وتجاوز فيه الغاية  
في ثقل الروح ! والله حسّبه ! وهذا أقلّ ما في تكلف القوافي الشاردة ، إذا  
ركبها غير فارسها ، وراضها غير سائسها<sup>(١)</sup> !

والعجب من ابن رشيقي : كيف وقف عند عيبه كلمتين فقط ؟ وكان الأولى  
به — وهو ناقد حصيف — أن يقول : إن الشعر كله مقرّرٌ : مثير للغثيان ؛ بل  
كان الأحجى ألا يرويّه ولا يهجّنه به كتابه ، ولولا ما حوى من أسماء جليّة ،  
لوجب أن يطرح في الزبالات !

## الفصل الثاني عشر

### تجنب حروف الروى الكريهة

أن يتجنب حروف الروى الكريهة البشعة ، التى تصدم الآذان ، وتُعشى النفس ، وتخدش الحاسة الفنية ! .

وهى على الترتيب : الثاء ، والحاء ، والذال ، والزاي ، والشين ، والصاد ، والطاء ، والظاء ، والغين ، والواو .

وفى ذلك يقول المعرى فى مقدمة اللزوميات<sup>(١)</sup> : فأما المتقدمون فقلما ينظمون بالروى حروف المعجم ؛ لأن ما روى من شعرا مرى القيس ، لا نعلم فيه شيئاً عن الطاء ، ولا الظاء . ولا الشين ، ولا الحاء ، ونحو ذلك من حروف المعجم .

وكذلك ديوان النابغة ليس فيه روى بنى على الصاد والضاد والطاء . ولا كثير من نظائرهن ! . وهذا شئ ليس يخفى .

والمحدثون أكثر تحقّقاً بالنظام ، لأن فيهم قومًا مستبحرين يكون ديوان أحدهم فى العيدة كدواوين كثيرة من أشعار العرب . وهذا أبو عبادة البحتري - وله شعر جم - ولا أعلم فيما روى له شيئاً على الحاء ولا الغين والثاء ؛ إلا أن يكون شاذاً لم يثبت فى أكثر النسخ .

ولاستئصال بعض الحروف ، كانت الكلمات الأكثر استعمالاً ثلاثية ، والمهملة فيها قليل ، ثم يليها الرباعى ، وأما الخماسى فالمستعمل منه نادر ، ولم يأت خماسى الأصول فى القرآن الكريم ، إلا ما كان اسماً لنبيّ عرّب اسمه ، مثل إبراهيم وإسماعيل ؛ ولهذا لم يؤلف الواضع بين حروف الحلق كالحاء والحاء والعين ، ولا بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الراء والسين .

(١) اللزوميات - ١ - ٢٤ .

ويقول ابن الأثير<sup>(١)</sup> : واعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يتجنبوا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف ؛ كالثاء ، والذال ، والحاء ، والشين ، والصاد ، والطاء ، والظاء ، والغين ، فإن في الحروف الباقية لمندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها .

والناظم في ذلك أشدّ ملامة ؛ لأنه يتعرض لأن ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة ، فيأتي في أكثرها بالبشع الكريه ، الذي يمجّته السمع ، لعدم استعماله ؛ كما فعل أبو تمام في قصيدته الثائية التي مطلعها :

قف بالطلول الدارسات علاثا<sup>(٢)</sup> .

وله قصائد من الشين ، والصاد ، والظاء .

وكما فعل أبو الطيب في قصيدته الشينية التي مطلعها :

مَسْبِيّ من دمشق على فراش :

وله قصائد من الذال ، والزاي .

وكما فعل ابن هاني في قصيدته الحائية الطويلة التي مطلعها :

سَرَى وجناحُ الليل أقم أفتح .

ولابن الرومي قصيدة من الخاء يمدح فيها العلويين ويهجو بني العباس ، وله

قصائد من روى الثاء ، والذال ، والزاي : والشين ، والصاد ، والواو .

والناظم لا يعاب إذا لم ينظم من هذه الأحرف في شعره ! بل يعاب إذا

نظمها وجاءت كريبه مستبشعة ! .

إن الشعر يحتاج إلى حلاوة وطلاوة كما قال ابن الخياط الدمشقي<sup>(٣)</sup> :

يُحْتَاجُ فِي الشَّعْرِ إِلَى طَلَاوَةٍ وَالشَّعْرُ مَا لَمْ يَكْ ذَا حَلَاوَةٍ

فإنما سماعه شَقَاوَةٌ

وأما الناثر فإنه أقرب حالا من الناظم ؛ لأن غاية ما يأتي به سجعتان أو

(١) المثل السائر - ٦٩ .

(٢) علاث - بكسر العين - : اسم شخص .

(٣) البيان والتبيين - ١ - ٧٢ .

ثلاث أو أربع على حرف من هذه الأحرف ، وما يعدم في ذلك ما يروق ، إذا كان بهذه العدة السيرة ، فإن كلفت - أيها الشاعر - أن تنظم شيئاً على هذه الحروف ، فقل : هذه الحروف هي مقاتل الفصاحة ، وعذرى واضح في تركها ؛ فإنّ واضح اللغة لم يضع عليها ألفاظاً تعذب في الفم ، ولا تلذّ في السمع ، والذي هو بهذه الصفة منها ، فإنّما هو قليل جداً . ولا يصاغ منها إلا مقاطيع أبيات من الشعر ، وأما القصائد المقصّدة ، فلا تصاغ منه ، وإن صيغت جاء أكثرها بشعماً كريهاً ! .

على أن هذه الحروف متفاوتة في كراهة الاستعمال ، وأشدها كراهية أربعة أحرف ، وهي :

الخاء ، والصاد ، والطاء ، والغين .

وأما الثاء ، والذال ، والشين ، والطاء ، فإن الأمر فيهنّ أقرب حالا . ويلاحظ : أن ابن الأثير لم يذكر الزاى ولا الواو ، ولا تقلان نقلاً عن أخواتهما ! وليست كراهة هذه الألفاظ في أجراسها الغليظة المنفّرة فقط . فإن لها عيباً آخر هو قلتها في اللغة العربية . فإذا نظم الشاعر منها ضيق على نفسه ما وسّعه الله عليه ، فإما أن يكتبني بالمتقطوعات التي لا تستوعب غرضه كله ، وإما أن يعيدها بنفسها ؛ فيعيد قبحاً مرتين ! .

ويقول الجاحظ : فأما اقتران الحروف ؛ فإن الجيم لا تقارن الطاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير .

والزاى لا تقارن الطاء ولا السين ولا الصاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير . وأقول : قد تتبععت هذه الحروف في الشعر ، فوجدت أنه لا يأتي بها إلا الشعراء الذين ينقصهم الذوق السليم !

أو الذين يقصدون التفاسيح والتشادق والتفسيهق ! .

أو الذين يريدون المباراة والمساجلة

أو الشعراء الملتزمون ما لا يلزم ؛ كالمعري ، والبارودي ، ومن إليهما .

ويلحق بهما الشاعر القاضي أبو المجد المعري - أخو أبي العلاء - وقد نظم

من الثاء ، والزاي ، والصاد ، والطاء ، والظاء ، والغين <sup>(١)</sup> ؟  
وابن قسيم الحموي من شعراء الخريدة <sup>(٢)</sup> ؛ وقد نظم من الدال ، والشين ،  
والصاد ، والظاء ، والغين ، والواو .

وقصيدته الواوية تبلغ واحداً وعشرين بيتاً ، نظمها ردّاً على قصيدة واوية  
كتب بها إليه ابن منير الطرابلسي .  
ومن قصيدة الحموي :

يا شاعراً أودعتُ أنامله      درّ القوافي كتابه التَّبَوِي  
لو كان إبليس قبلُ لاح له      آدم من نَقَشِ فصّك الغَرَوِي  
لخرّ ما شئتُ ساجداً وعناً      لله طوعاً وكان غيرَ غَوِي  
والدهر قد مات منه حادثه      خوفاً ، فأنّى يكون غيرَ سَوِي  
ويظهر أن ابن قسيم الحموي ؛ كان مولعاً بالإغراب في القوافي ! فمن ذلك  
أنّ له قصيدة من تسعة أبيات ، قصد أن لا تخلو منها كلمة من صاد ، وكلمة  
من سين ! وفي الأبيات تعسف كما يقول العماد <sup>(٣)</sup> !

ومن أبيات القصيدة :

تُصغى لتستمع اصطخا      بَ لسانه الصُّمُّ السَّوَادُ  
وصل السَّجاجة بالصَّبا      حة سالبٌ بالصوت ساحر

وله مقطوعة على خمسة أوزان ، وخمس قواف ، وهي <sup>(٤)</sup> :

قل للأُمير أخى الندى • والنائل • الهطال • للشعراء • والقُصّاد  
لا زلتَ تنتهك العدى • بالذابل • العَسال • في الأحشاء • والأكباد  
ووقّيت من صرف الرّدى • والنازل • المغتال • بالأعداء • والحسّاد

( ١ ) الأوراق - ١ - ١١ إلخ .

( ٢ ) الخريدة - ١ - ٤٣٣ .

( ٣ ) الخريدة - ١ - ٤٤٧ .

( ٤ ) المصدر نفسه - ١ - ٤٤٤ .

ومن ذلك النوع المستكره الذى ينفر منه الطبع ، وينبو عنه السمع ،  
قصيدة لأبى حزام العُكْلِيّ<sup>(١)</sup> - وكان فى زمن المهدي - فى مدح أبى عبيد الله  
كاتب المهدي ، أولها :

تذكّرتُ سلمى وإِهْلَاسَهَا فلم أنسِ والشَّوقُ ذو مَطْرُودٍ  
وفيهما يقول :

لَا وَحَى وزيرُ إِمَامِ الهِدى لنا وهو بِالْإِرْبِ ذو مَحْجُودٍ  
يسوسُ الأمورَ فتأتى له وما فى عزيمته مَنَهُودٍ  
وَفَى بِالْأَمَانَةِ صفو التُّقى وما الصفو بالرِّزْقِ المَحْمُودِ  
وعند معاوية المصطفى حيّاً غير ماحٍ ولا مطرُودٍ<sup>(٢)</sup>  
فقال الوزير الأمين انظموا قريضاً عويصاً على لؤلؤهِ  
فعبرت مرتفعاً وحيه لغير انصباب إلى المشكُودِ<sup>(٣)</sup>  
سيُدنى من الحق ذو فطنة معى فى العواقب والمبدُودِ  
بيوتاً على لها وجهة بغير السَّناد ولا المكفُودِ<sup>(٤)</sup>

ومن ذلك ما أنشده ابن الأعرابى لحمد بن علقمة التَّيْمِيّ - يقولها لرجل  
من كلب يقال له ابن الفَنَشِخِ<sup>(٥)</sup> :

أَفْرِخْ أَخَا كَلْبٍ وَأَفْرِخْ أَفْرِخِ أَخْطَأَتْ وَجَهَ الْحَقِّ فِي التَّطَخُّطِخِ<sup>(٦)</sup>

(١) الموشح - ٣٥٤ .

(٢) مطرُودٌ : غير طارىء .

(٣) المشكُودُ : الشكوى .

(٤) المكفُودُ : الإكفاء ، وقد مر تعريفه .

(٥) الموشح - ٣٥٤ .

(٦) التطخطة : تسوية الشيء وضم بعضه إلى بعض .

أما وربَّ الرَّاقصات الزُّمَخْ يخرجن من بين الجبال الشَّمَخْ<sup>(١)</sup>  
يزرن بيتَ الله عند المصرَخْ لَتَمَطِّخَنَّ بِرِشَاءِ مِمَطَخْ<sup>(٢)</sup>  
ماءٌ سوى مائىَ يا بن الفَنَشَخْ أو لَتَجِيْبَنَّ بوشى بَخْ بَخْ<sup>(٣)</sup>  
من كيس ذى كَيْسٍ مِثْنٌ مِّنْفَخْ قد ضَمَّهُ حَوْلَيْنِ لِمَ يَسْنَخْ<sup>(٤)</sup>  
ضَمَّ الصَّمَالِيخِ صِمَاخِ الْأَصْلَخِ<sup>(٥)</sup>

ومما جاء من قافية الظاء : ما ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، قال :  
صنع أبو دلف : القاسم بن عيسى العجلي ما يأتى :

أنا أبودلف البادى بقافية جوابها يُعْجِزُ الداهى من الغيظ .  
من زاد فيها له رَحْلَى وراحلى وخاتى والمدى فيها إلى القيظ .

قال ابن عبد ربه : وظن أنه لا ثالث لهاتين القافيتين ، فصنعت :

قد زدتُ فيها ولو أمسى أبودلف والنفس قد أشرفت منه على الفيظ .<sup>(٦)</sup>  
ويقول ابن ظافر — معلّقاً على ذلك — وقد تذاكرنا بهذه الرقعة ، فقال  
بعض الحاضرين : لم تبق رابعة فصنعت :

قد زدت فيها ولو ماتا بغيظهما ما ألقت النمل أحياناً من البيظ .<sup>(٧)</sup>  
ثم صنع القاضى الأعز بن المؤيد بعد ذلك بديها :

( ١ ) الزمخ : الشوامخ .

( ٢ ) المصرخ : الاستغاثه . ومطخ الماء : متحه من البئر بالدلو .

( ٣ ) بخ بَخْ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء ، أو الفخر والمدح .

( ٤ ) مِثْنٌ : جدير أن يقال فيه : إنه كذا ، والمنفخ : الخطيب . ولم يسنخ : لم يزنخ و يتسَخ .

( ٥ ) الأصلخ : الأسم جدا لا يسمع ألبة .

( ٦ ) الفيظ : كل ما يفيض من إناء وغيره فبالضاد ، إلا فيض النفس ، فإنه بالظاء .

( ٧ ) البيظ : كل بيض لطائر أو حيوان فهو بالضاد ، إلا بيظ النمل فإنه بالظاء .

ذو الحزم لا يتعدّى في فعائله ما دام للناس تكوين من البيظ. (١)

ثم صنع شهاب الدين بن أخت الوزير نجم الدين :

يا سادتي في القوافي قلّما تركوا كماً تح البئر لم يترك سوى البيظ. (٢)

حازت قوافيكم الظاءات أجمعها كمثلما حيز مَحُّ البيظ. بالبيظ. (٣)

لكن مواعيد باديكم أبي دلف لا صدق فيها كمثل الآل والبيظ. (٤)

ويقول ابن ظافر : وأظن «صاحب العقد» وهيم في كون قائل البيتين أبا دلف العجلى ! فإن أبا دلف أفضل وأفصح وأفضل وأعلم وأشرف ، من أن يقع في مثل هذا ! وأظن قائلهما أبا دلف : هاشم بن محمد الخزاعي الشاعر ، الذي كان والياً للبصرة ، من قبل المقتدر العباسي سنة خمس وثلاثمائة (٥) .

وأرى : أنه لا معنى لاستبعاد ابن ظافر أن يكون قائلهما أبو دلف العجلى ؛ لأن هذا كثيراً ما يحدث على جهة التفاسيح والفكاهة ممن هم أجل وأعظم من أبي دلف ، ثم إن هذا لا ينقص من قدر أبي دلف ، ولا قدر غيره .

وقد وقعت بين الوزير : أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي ، وصاحب الشرطة : أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي اللغوي مساجلة ظريفة بالظاء ، لا تخلو من الطرافة (٦) .

كما جاء من قافية الزاي قصيدة للصولي في أيام النيزوز ، رفعها إلى الخليفة الراضي وأنشدها إياه ، يبلغ عدد أبياتها تسعين بيتاً ! .

( ١ ) البيظ هنا : ماء الرجل .

( ٢ ) البيظ : بقية الماء في نفرة البئر ، وهي الحفرة التي يبقى فيها الماء بعد نزحها .

( ٣ ) البيظ : قشرة البيض الرقيقة فوق المح ، وهو المسمى بالغرق .

( ٤ ) البيظ : خيال وجه الإنسان في السيف .

( ٥ ) بدائع البدأه - ١٥ - ١٥٣ .

( ٦ ) المعجب ، في تلخيص أخبار المغرب - ٦٥ .



ولما سمعها الراضى استحسناها . وقال : ما أعرف زائفة مثلها ، بل لا أعرف زائفة إلا للشَّماخ ، وتلك عجوز وهذه شابّة !

ثم وصله أحسن صلة مع ندّ وعنبر ! .

ولا يمكن أن نوافق « الراضى » على أنها خير زائفة إلا في طولها فقط ! وأما القصيدة نفسها ؛ فقد حشيت بالكلمات الغريبة ، والوحشية ، والمتنافرة ! وهذا شيء لا بدّ منه ؛ لأن الكلمات الزائفة محدودة ! .

ويكفى أن يكون من قصيدة الصول هذه الكلمات : الكوز . الشيروز ، الماحوز ، معزوز ، مجلوز ، منكوز ، تكليز إلى غير ذلك .

ولعل أسلس أبياتها ، وأخفها على الأذن قوله :

بارك الله للأمير أبى العباس      خير الملوك فى النيروز  
وأراه أولاده الغرّ أجدا      دأ بمُلك نام وعز عزيز  
رَضَى الراضى الإلهُ للملك      عزّز الدين أيّما تعزيز

ومما جاء من حرف الشين قول الصولى :

غشيتنى من الهموم غواشى      لعذول يلاوم فيك وواشى  
لو يلاقوا الذى لقيت من الوجد      لشوق بين الجوانح ناشى  
نمّ بالسرّ عنهم دمع عيني      إنّ سرّ المحب بالدمع فاشى  
من عذيرى من ظالم أنا منه      فى زمان الوصال للهجر خاشى  
أخذ القَدّ من قضيب رطيب      وحكى أعين الظباء العطاش  
وقد أنشدها أيضاً الخليفة الراضى فى إمارته ، فعمل الراضى فى قافيتها ومعناها .

فعمل الصولى أيضاً من قافيتها ، فعمل الراضى كذلك ! .

ولا أدري سرّ كلف الصولى وخليفته الراضى بالعمل من هذا الروى العجيب ؟!

ويلاحظ : أن حرف الشين — مع أنه من الحروف المكروهة — لا يقبح كثيراً إذا كانت القصيدة رقيقة البناء ، حلوة الصياغة ، لطيفة البحر ! ولذلك نرى الشعر الشعبي لم ينس نصيبه من قافية الشين ؛ وإننا لنشجى من الأغنية الشعبية المشهورة :

قولوا لعين الشمس ما تحماشى بكره غزال البر صابح ماشى  
وكذلك نظرب كل الطرب من الأغنية التى تغنيها مطربة الدنيا « أم كلثوم »  
والتي تنهى بهذه الكلمة « مصحّش » .  
ومن قافية الصاد ؛ قصيدة للصوى لها قصة ؛ وذلك أن الخليفة الراضى قد كان وعده « بفص » .

فلما استنجزه وعده ، طلب أن يكتب إليه شعر صادى ، قافيته « الفص »  
فعمل قصيدة عدتها ثمانية وأربعون بيتاً ، أولها :

ألا قل لخير الناس نفساً ووالداً ورهطاً وأجداداً مقالة مختص  
محمد المأمول والمقتدى به الأمير أبى العباس ذى الفضل لا النقص  
ومن جمع الآداب بعد افتراقها وثقفها بالبحث منه وبالفحص<sup>(١)</sup>

والقصيدة فى جملتها ثقيلة الظل ، جامدة النسيم . ومحال أن تكون غير ذلك ! .

ولا ندرى سرّ كلف الصوى بالعمل من هذا الروى الغليظ ، وإعجاب الراضى به . ومتابعته عليه ؟ .

بل العجب من الراضى كيف يقترح على الصوى أمثال هذه القوافى السمجة ، وتقع منه بمزق ؟ ! مع أنه كان من الخاء الأدباء ، والشعراء الحذاق ! .  
ويمكن أن نعتذر عنه ، بأنه كان يمتحن الصوى !

ولابن زيدون والمعرى قصيدتان طائيتان !

ثم جاء الحصفكى<sup>(١)</sup> ، فنظم قصيدة طائية تقليداً للمعرى ، أولها :  
أَعَذْلَكَ هَذَا أَنْ رَأَيْتَهُمْ شَطُّوا      وَفِي الْآلِ إِذْ غَطُّوا      هُوَادَجُهُمْ غَطُّوا  
وعدد أبياتها ستون بيتاً .

وقد كان منطق القوم - كما يقول الرافعى - يجرى على أصل من تحقيق الحروف وتفخيمها ، ولكن أصوات الحروف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت ، فلا بد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف ، حتى يمازج بعضها بعضاً ، ويألف منها شيء مع شيء ، فتتداخل خواصها ، وتجتمع صفاتها ويكون منها اللحن الموسيقى ، وهو لا يكون إلا من الترتيب الصوتي ، الذي يثير بعضه بعضاً على نسب معلومة : ترجع إلى درجات الصوت وأبعاده<sup>(٢)</sup> .

ومن المحزن : أن غرام « البارودى » بالفخر : بأنه رب قلم كما أنه رب سيف !  
حداه أن ينتظم بالروى كل حروف المعجم تقريباً ، فجاءت له قصائد على قافية الحمزة التى يختم بها الفعل ، وهى غاية فى الثقل : كقوله :

وخميلة بكرت سماءاً أريكتها	تحمى الهجير عن النفوس وتدرأ
تستن فيها الريح بين منابت	خضراء يغشاها الجبان فيجرأ
تستوقف الأبصار فى غدرانها	صور تزول مع النسيم وتطرأ
فالورق تهتف والربارب ترتعى	والعين تبغم والبلابل تصرأ <sup>(٣)</sup>
شجرأ تسلكها السموم فتغتدى	رهوا ويسكنها الهجير فيمرأ
فتح الربيع بها مدارس نزهة	للعين فيها بهجة لا تضرأ <sup>(٤)</sup>

(١) الخريدة - ٢ - ٥٠٣ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى - ٢٢٢ .

(٣) الربارب : قطعان الطباء . والعين بكسر العين<sup>٥</sup> - : واسعات الميون - يريد بقر الوحش .

وتصرأ : تصيح .

(٤) لا تضرأ : لا تخفى .

وهذه الكلمات قلقة غير متمكنة ، زيادة على غرابتها وخشونتها في الأسماع والصدور ! .

وذلك لأن الهمزة تحلو في ختام الأسماء لا الأفعال ؛ كما في « همزية البوصيري » وشوقي وغيرهما .

هذا إلى كثرة الأسماء المهموزة الآخر في اللغة العربية ، كالأسماء والهواء والهناء مما يغنى الشاعر بالقوافي ، ويفسح له المجال في النظم ! .

كما جاءت للبارودي قصائد مقصورات ، كما جاءت له — كما أسلفنا — قصائد من الروى النابي الشاذ ، فزاد في ذلك على أبي تمام والمتنبي وابن هاني وابن قسم الحموي وغيرهم ، وجارى المعرى في ذلك إلى أبعد الغايات — وبينهما بون شاسع في الحصول اللغوي — وأين النهر من القاموس المحيط ؟ .

ولم يقف عند هذا ، فعمد إلى لزوم ما لا يلزم ، اتّباعاً لشيخه شيخ المعرفة أيضاً ! . وبالرغم مما عرف عن البارودي من إحكام الصناعة ، ومتانة السرد ، وسلامة الديباجة ، فقد سيق مرغماً إلى الوقوع في بعض التكلف والغرابة والضعف والتهافت ، في مواضع غير قليلة ؛ في ظل هذا الالتزام ، الذي لم يلزمه به أحد ! وهما مما يبرأ منه سائر شعره المرصوف الحصيف ! هذا إلى أنه ضيق من خطوه ، وقصر من عنانه ، وكفّ من طمّاحه . وهو المشهود له بطول النفس ! .

وهذه الحروف المكروهة ، التي يبنى عليها الروى بعض الشعراء المتهورين ، ليست كراحتها مقصورة على الشعراء فقط ، بل هي مكروهة في النثر أيضاً <sup>(١)</sup> ؛ بل هي أجدر أن تكره في النثر أكثر ؛ لإمكان الاستغناء عنها ، إذ المندوحة فيه أوسع ، والميدان أفسح ، اللهم إلا في المقامات فإن ذلك فيها مقصود إليه .

وحسبنا أن المعرى — على حبه للإغراب — قد ألف كتاب سيف الخطبة من جزئين ، يشتمل على خطب السنّة : فيه خطب للجمع والعيد ، والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح ، وهي مؤلفة على حروف من حروف

المعجم ، ففيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ، والراء واللام والميم والنون .

وقد قال : وتركت الجيم والحاء وما يجرى مجراهما ؛ لأن الكلام المقول في الجماعات ؛ ينبغي أن يكون سَجَسَجًا سهلاً !

ومقدار هذه الخطب أربعون كراسة<sup>(١)</sup> .

## الفصل الثالث عشر

### التصرّيع فى قصائد الإنشاد

أن يلتزم الشاعر المنشد التصرّيع فى قصائده .

وقد جاء فى اللغة : صرّع الشعر والباب وصرّعه - بالتخفيف والتشديد - : جعله ذا مصراعين .

وفى الاصطلاح : قال ابن الأثير : إنه فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنشور<sup>(١)</sup> .

وقال الخطيب<sup>(٢)</sup> : هو جعل العروض<sup>(٣)</sup> مقفأة تقفية الضرب .

وهو مذهب الشعراء الفحول قديمًا وحديثًا ، إلا ذا الرمة والفرزدق .

وموضعه المفضّل أول القصيدة ، وقد يهمل بعض الشعراء التصرّيع أول القصيدة ، ثم يأتى به بعد ذلك ، وهو تقصير ؛ كقول ذى الرمة :

أدارًا بحزوى هجبت للعين عبّرة فماء الهوى يرفض أو يترقرق  
ثم قال بعد عدة أبيات :

أم من ميةً اعتاد الخيال المورق نعم إنه ممّا على النوم يطارق

وقد يقع التصرّيع فى أثناء القصيدة . بعد التصرّيع فى أولها . وهو عندهم دليل على قدرة الشاعر وسعة بحره ، وقوة طبعه . وأكثر الشعراء ولوعًا بذلك

( ١ ) المثل السائر - ٩٨ .

( ٢ ) الإيضاح - ٢٨٠ .

( ٣ ) العروض : اسم الجزء الأخير من نصف البيت الأول - وهى مؤنثة - والضرب : اسم الجزء الأخير من النصف الثانى .

امرؤ القيس ، ومن ذلك قوله :

قفا نبيك من ذكرى حبيب ومنزل      بسقط اللوى بين الدخول فحومل  
ثم قال :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل      وإن كنت قد أزمعت صرماً فأجمل  
ثم قال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل      بصبح وما الإصباح منك بأمثل  
وإن كان الأفضل عندهم ، أن يأتي به الشاعر في أثناء القصيدة بعد التصريح في أولها ، إذا خرج من قصة إلى قصة ، أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر . إلى غير ذلك من الأغراض . فيكون كأنه شرع في قصيدة جديدة .

والذى دعاهم إلى ذلك : أن القصيدة عندهم كانت تتألف من عدة أغراض تقليدية ؛ فتمت انتهى من غرض . بدأ مطلعاً جديداً لغرض جديد . والشعراء المحدثون ومن والاهم لم يحسّوا الحاجة إلى ذلك ؛ لعنايتهم بتلاحم الأبيات . واعتبارهم القصيدة ، وحدة فنية غالباً . ولهذا قللوا منه في الوسط ، وإن حرصوا عليه في البدء . ولعل أكثر الشعراء المعاصرين وكّلوا به في الوسط : زميلنا المرحوم « محمد الأسمر » .

فهو يأتي به في القصائد ، بل في المقطوعات .

وفي مذهبي : أنه لا يصح أن يوثق به في الوسط أكثر من مرة في القصيدة الطويلة ، كما فعل « عمرو بن كلثوم التغلبي » في معلقته النونية ، حيث يقول في مطلعها :

ألا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا      ولا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

ثم يقول :

قَفِيْ قَبْلَ التَّفَرُّقِ يا ظَعِيْنا نَحْبِرُكَ اليَقِيْنَ وَتُخْبِرِيْنا  
حين اتَّجِهَ بالشَّعْرَ إِلَى غَرَضٍ آخَرَ .

وأنا بطبعي لا أميل إليه في غير أوائل القصائد ، وإن لم تخنى الذاكرة ؛  
فإني لم استعمله في أثنائها قط ، في أكثر من عشرة آلاف بيت ، في ثلاثة  
دواوين مطبوعة ، وحتى في القصائد التي جاوزت المائة ! .

### قيمة التصريح

والتصريح — في حقيقته — : ليس إلا ضرباً من الموازنة والتعادل بين  
العروض والضرب ، يتولّد منها جرّس موسيقى رخيم ! .  
وهو لذلك من أمس الحلّى البديعية بالشعر ، وأقربها إليه نسباً ، وأوثقها  
به صلة .

ونحن حينما نُرْهَفُ آذاننا للإنشاد من شاعر معروف ، فأول ما نتشوّف  
إليه ، ونترقبه منه ، هذا التصريح الذي يشبه مقدّمة موسيقية خفيفة قصيرة ، تلهب  
إحساسنا ، وتهيئنا لاستماع قصيدته ، وتدلّنا على القافية التي اختارها ، فإن  
أغفله أو أتى به رديئاً أو ركيكاً ، خيّل إلينا أن شيئاً من الجمال ، ترك مكانه  
شاغراً ! .

وإنك لتَهَشِّشْ لقول المتنبي :

مَغَانِي الشُّعْبِ طَيِّباً فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

نعم تهشّ لهذا التصريح غير المتكلف .

كما تشعر بنبوّ أذنك عن قول حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَةِ لَهُ :

سَلَى الرَّبِيعَ أَنَّنِي يَمَّمْتُ أُمَّ سَالِمٍ وَهَلْ عَادَةُ لِلرَّبِّيعِ أَنْ يَتَكَلَّمَ



وقول أبي نواس كذلك :

أَقْلَنِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ      وبالإقرار تبت عن الجحود  
وتأمل بيت البحتري مثلاً :

عذيري فيك من لاح إذا ما      شكوت الحبّ قطّعتني ملاماً  
فإنه لو قال مثلاً :

شكوت الحبّ قطّعتني عتَاباً .....

لفقد البيت كثيراً من موسيقاه وإيقاعه ! .

ومثله قول البارودي :

زمزى الكأس      وهاتى      واسقنيها      يا مَهَانِي

فإنه يمكن أن يقال :

واسقنيها      يا حَيَاتِي .....

فلا يفقد البيت شيئاً من مائه وروائه ! .

ولكنه بلا شكّ يصبح « نشاذاً » إذا قيل :

واسقنيها      يا غَزَالِي .....

ولم يفت الشعراء أن يُشيدوا بمنزلة التصريح ، وينوّها بقيمته ، فهذا أبو تمام يقول من قصيدة في مدح أبي سعيد الطوسي :

وتقفو لي الجدوى بجدوى وإنما      يروقك بيت الشعر وهو مصرّع

ويقول الثعالب في مدح شعر الأمير الميكالي :

وإذا تفتّق نورُ شعرك ناضراً      فالحسن بين مرّصع ومُصَرَّع

وهذا كلام جاء من جهة الاختصاص — كما يقولون — والشعراء أعرف بصنعتهم !

والشعراء المعاصرون الكبار ، يكادون يلتزمون التصريح إلا في بعض المقاطع ، وهي بحكم خفتها . وقلة أبياتها . ووحدة الغرض فيها ، ليس من الضروري أن تصرع ، وإن جاء كثير منها مُصرَّعا .

هذا إلى أن التصريح جاء في شعرهم بريثاً من الهُجْنَة التي تلحقه ، كالإقواء<sup>(١)</sup> والسَّناد<sup>(٢)</sup> ، والإيطاء<sup>(٣)</sup> ، لتأنتقهم في الصياغة . وتشددهم في النَّخْل والتَّصفية . ومجانبتهم ما أخذ على أسلافهم من العيوب ! .

وقد كان للعصر الذي يظلمهم أكبر الأثر في ذلك . فقد أمدتهم بكل أسباب الرِّقَّة والأناقة ، ووضع في أيديهم كل وسائل التثقيف والتَّهذيب ! .

( ١ ) الإقواء : الاختلاف في حركات الإعراب ؛ فيكون بعضه مثلاً مرفوعاً ، وبعضها مجروراً ، وهو كثير في الشعر الجاهلي .

( ٢ ) السناد : اختلاف الحركات قبل الروى .

( ٣ ) الإيطاء : أن يتفق معنى القافيتين في قصيدة واحدة قبل سبعة أبيات .

## الفصل الرابع عشر

### حسن المطالع والمقاطع

أن يتوخى حسن المطالع والمقطع : أى حسن الابتداء ، وحسن الانتهاء ،  
ويسمى حسن المطالع أيضاً : براعة المطالع ، وبراعة الاستهلال ، وقد كان  
ابن العميد يقول : إنَّ حُسْنَ الشعر ، المطالع والمقاطع !

#### حسن المطالع :

فأما حسن الابتداء . فهو أول ما يقرع أذن السامع ؛ فينشرح له صدره ،  
وتهتز له نفسه ، ويشعر له بأريحية وبهجة ؛ فيتشوّف لما يأتى بعده ، وينساق  
إلى الإصغاء إليه طواعية واختياراً ! ولا سيّما إذا كان الافتتاح مصوراً بلحو  
القصيدة ، مترجماً عنها ، ملخصاً لمغزاها ، فإنك حينما تقرأ مطلع قصيدة  
أبى تمام :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب      فى حدّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعب

يُلْقَى فى روعك : أنها قصيدة حربية ، تقرر : أن للسيف الكلمة الأولى  
فى حسم المشكلات ، ودحر الأعداء ، ونيل الظفر الفاصل ، والنصر العزيز ! .  
وإن الأقلام فى الواقع ليست إلّا خدماً للسيوف ! كما يقول المتنبى :

حتى رجعت وأقلامي قوائِلُ لى      المجد للسيف ليس المجد للقلم  
اكتبُ بنا أبداً قبل الكتاب به      فإنما نحن للأسياف كالخدم

.....

من اقتضى بسوى الهندى حاجته      أجاب كلَّ سؤال عن هل « بَلَمْ »<sup>(١)</sup>

( ١ ) أى يقال له : هل فعلت كذا ، فيجيب : لم أفعل .

وهذا صحيح مسلم، فإن الحق يحتاج إلى قوة تؤازره ، وتاريخ البشرية يؤكد هذا .

وصدّق الشاعر العصري حيث يقول :

ألا كلُّ شعبٍ ضائعٌ حقُّهُ سُدىً      إذا لم يويّد حقُّهُ المدفعُ الضخم

والقصيدة قالها أبو تمام في فتح المعتصم لعمورية المدينة الرومية ، في قصة معروفة ، وقد أرجف المنجّمون أنها لا تفتح إلا إذا نضج التين والعنب ، فلم يسمع المعتصم أقوالهم ، وكان الفتح المبين !

ومطلع قصيدة المتنبي :

ألا لا أرى الأحداثَ مدحاً ولا ذمّاً      فما بطشُها جهلاً ، ولا كفُّها حلماً

تفهمك أنها قصيدة حزينة ينث بها مصدور ! فجعه الزمن في شيء عزيز لديه ! فهو واجم كئيب ، واقف بين الصبر والجزع ، والتوجّع والاستسلام !

والشأن كذلك ، فقد صاغها المتنبي في رثاء جدته ، وقد كان كتب إليها يسألها المسير إليه ، بعد غيبة طويلة عنها ! فحُصّت من الفرح فأتت ! .

. . . ومن فرح النفس ما يقتل .

كما يقول المتنبي نفسه !

ومطلع قصيدته :

غيرى بأكثر هذا الناسِ يتخذُ      إن قاتلوا جَبَنُوا أوحدَثُوا شَجَعُوا  
أهلُ الحفيظة إلا أن تجرّبهم      وفي التجارب بعد الغيِّ ما يزع<sup>(١)</sup>

(١) الحفيظة : الحمية ، والغى : ضد الرشد . ويزع : يكف ويردع ؛ يقول : الناس أهل حمية ونخوة ما لم تجربهم ، فإذا جربتهم أغلفوا ظنك !

يحدثك : بأنه يذمّ أناساً مقاتلين ، يفخرون بالشجاعة والنجدة وقت السلم ،  
فإذا شبت المعركة وحمى البأس ، لم يُغنوا فيها شيئاً ، وذهبت آمالك فيهم أدرج  
الرياح ، بعد أن غرك بهم الغرور !

والأمر كذلك ، فالقصيدة تصف معركة بين سيف الدولة وبين الروم ،  
انهزم فيها جند سيف الدولة وفرّوا عنه ، حتى كاد يقع في الأسر ! !  
ومطلع قصيدة شوقي في رثاء « عبده الحمولى » وهو :

طوى البساطُ وجفّت الأقداحُ      وغدت عواطلُ بعدك الأفراحُ

فلو لم تعرف : أن الميت عبده الحمولى المغنى ؛ لعرفت على كل حال : أنه  
يرثى مغنياً مرموق المكانة ، سنىّ المنزلة ، وإلا فهل يطوى بساط الراح :  
وتجفّ الأقداح ، وتعطلّ الأفراح ، لغير بلبل صداح ؟ !  
ومطلع قصيدته في وصف مرقص أقيم بقصر عابدين :

حفّ كأسُها الحبيبُ فهى فضةٌ ذهبُ

وهل تفتح قصيدة مرقص ؛ بأليق من هذا المطلع الحموى الثواسى الراقص  
المرقص معاً ؟ !

وهل يتصور رقص بدون شراب . يكلّله حباب ؟ !

وقس على ذلك كثيراً من أمهات القصائد العربية .

وقد سئل بعضهم : من أحذق الشعراء ؟

فقال : من أجاد الابتداء والمطلع .

ويقول ابن رشيق : حسن الافتتاح ، داعية الانشراح . ومطية

النجاح .

ومن جودة المطالع أيضاً : أن يكون صدر البيت دالاً على عجزه ؛

كالتصريد وما شاكله ، وذلك كقول عمرو بن معديكرب الزبيدى :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه      وجاوزه إلى ما تستطيع

وقول آخر :

بالله يا ظبي بنى الحارثِ      هل مَنْ وفَى بالعهدِ كالناكثِ  
وقول البحترى :

أَحَلَّتْ دَمِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَّمَتْ      بَلَا سَبَبٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَلَامِي  
فَلَيْسَ الَّذِي حَلَلْتَهُ بِمَحَلَّلٍ      وَلَيْسَ الَّذِي حَرَّمْتَهُ بِحَرَامٍ  
وقول آخر :

وإن كنتُ محتاجاً إلى الحلمِ إنني      إلى الجَهْلِ في بعضِ الأحايين أخرج  
فلي فرسٌ للخيرِ بالخيرِ مُلْجَمٌ      ولي فرسٌ للشرِّ بالشرِّ مُسَرَّجٌ  
فمن رام تقويمِي فَإِنِّي مُقَوِّمٌ      ومن رام تعويمِي فَإِنِّي مُعَوِّجٌ  
وفوق ذلك كله قوله — تعالى — : « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وفي هذا ورد قولهم : البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره ، وآخره يرتبط بأوله .

وقد قال الشاعر :

خُذْهَا إِذَا أُنْشِدْتَ فِي الْقَوْمِ مِنْ طَرَبٍ      صُدُورُهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا  
ومن قول ابن رشيقي : ينبغى للشاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة .  
ويذكرون : أن دِعْبَلَا الخُزَاعِيَّ . وديك الجن الحمصي ، اجتمعا فأنشده ديك الجن ابتداء قصيدة له وهو :

كَأَنَّهَا مَا كَأَنَّهُ خَلَلَ الْخُلَّةَ      وَقَفُّ الْهَلُوكِ إِذْ بَغَمَا<sup>(١)</sup>

(١) خلل — كسبب — : منفرج ما بين الشيتين : والخلة : ما فيه حلاوة من النبت . والوقف : سوار من عاج . والهلوک هنا : المتساقطة في المشي .

ومعنى البيت : أن عشيقته ، كأنها فى جديدها وعينها ؛ الغزال الذى كأنه  
 بين نبات الخلَّة ؛ سوار الحارية الحسنه المشى ، المتهالكة فيه !  
 فلما سمع دعبل البيت ، قال له : أمسك ! فوالله ما ظننتك تُتم البيت ،  
 إلا وقد غُشي عليك ! أو تشكَّيت فكَّيَّك ! ولكأنك فى جهنم تخاطب  
 الزبانية ، أو قد تخبَّطك الشيطانُ من المس<sup>(١)</sup> .  
 وقد صدق دعبل فهذا المطلع من أقبح ما يسمع ! ويجب الاحتراس  
 من مثله !

### مطالع حسنة :

ومن المطالع الحسنه قول امرئ القيس :  
 قفا نبيك من ذكرى حبيب ومنزل      بسقط اللوى بين الدخول فحومل  
 وهو عندهم أفضل ابتداءٍ صنعه شاعر !  
 وقول النابغة :

كَلِّبْنِي لَهُمْ      يَا أُمَيْمَةُ ناصبٍ      ولبَّ أُقاسيه بطيء الكواكب

وقول أوس بن حجر :

أَيَّتْهَا النَّفْسُ أَجْمَلُ جَزَعًا      إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وقول بشار بن برد :

أَبَى طَلَلٌ بِالْجِرْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا      وماذا عليه لو أجاب مُتِيماً

وهو عندهم أفضل ابتداءٍ صنعه محدث !

وقول أبى نواس :

لَمَنْ دِمْنٌ تَزْدَادُ طَيْبَ نَسِيمٍ      - على طول ما أَقْوَتْ - وحسنَ رسوم<sup>(٢)</sup>

(١) العمدة - ١ - ١٤٣ .

(٢) أقوت الدار وقويت : خلت .

وقوله :

دع عنك لومي فإنَّ اللومَ إغراءٌ      وداوئي بالتي كانت هي الداءُ  
وقول إسحاق الموصلي :

هل إلى أن تنام عيني سبيلُ      إنَّ عهدي بالنوم عهد طويل  
وقد قيل فيه أيضاً : إنه أحسن ابتداء ابتداء به مولّد .  
وقول أشجع السلمى فى مدح الرشيد :

قصر عليه تحيةً وسلامُ      خلعت عليه جمالها الأيامُ

وفى رواية :

نشرت عليه جمالها الأيامُ . . . . .

وكان أبو تمام فخم الابتداء ، له روعة وعليه أبهة ، والغالب عليه نحت  
اللفظ ، وجهارة الابتداء ! كقوله :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عواري      فحذارٍ من أسد العرين خذاري

وقوله :

يا ربّع لو ربّعوا على ابن هُموم<sup>(١)</sup> . . . . .

وقوله :

لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ      خفَّ الهوى وتقصّمت الأوطارُ

وكان الآمدى يفضل ابتداءات البحترى جداً ، ومنها :

ما على الركب من وقوف الركاب      فى مغاني الصبا ورسم التصابي



وقوله :

ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ أَنْتَى لَا أَسْلُو . . . . .

وقوله :

بُودَى لَوْ يَهْوَى الْعَدُولُ وَيَعْشَقُ لِيَعْلَمَ أَسْبَابَ الْهَوَى كَيْفَ تَعْلَقُ

وقول ابن المعتز - مع تناسب القسمين - :

أَخَذْتُ مِنْ شَبَابِي الْأَيَّامُ وَتَوَلَّى الصَّبَا عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقول ابن هانئ - مع بديع الاستعارة - :

بِسْمِ الصَّبَاحِ لِأَعْيُنِ النَّدْمَاءِ وَانْشَقَّ جَيْبُ غِلَالَةِ الظُّلَمَاءِ

وقول التهامي :

حَازَكَ الْبَيْنَ حِينَ أَصْبَحْتَ بَدْرًا إِنَّ لِلْبَدْرِ فِي التَّنْقُلِ عَذْرًا

وقول الخازن - يهنيءُ الصاحب بن عباد بسبطه ، الشريف أبي الحسن عباد الحسنى - :

بِشْرَاكِ قَدْ أَنْجَزَ الْإِقْبَالَ مَا وَعَدَا وَكَوْكَبِ الْمَجْدِ فِي أَفْقِ الْعَلَا صَعْدَا

مطالع قبيحة :

لَمَّا أَنْشَدَ الْأَخْطَلُ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا<sup>(١)</sup>

تطيرَ عبد الملك ، فقال : لا ، بل منك !

فجعله الأخطل :

( ١ ) خف القطين : أهل الدار المقيمون ، وخفوا : ارتحلوا مسرعين .

خفّ القطّين فراحوا اليوم أو بكرّوا

وأنشد ذو الرمة عبد الملك قصيدته التي أولها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كُلى مَفْرِية سَرَب<sup>(١)</sup>

وكانت عينا عبد الملك تدمعان دائماً لشعرة فيهما ! فغضب عليه ونحاه ،  
وقال له : وما سؤالك عن هذا يا بن الفاعلة — لا يكنى ! —  
وأنشد جرير عبد الملك قوله :

أَتَضْحَوِ أَمْ فَوَادُّكَ غَيْرُ صَاحٍ عَشِيَّةَ هَمِّ صَحْبِكَ بِالرَّوَّاحِ  
فقال له : بل فؤادك يا بن اللّخناء !

وأنشد أبو النّجم العجلى الرّجّاز هشام بن عبد الملك في وصف الشمس :  
صفراء قد كادت ولما تَفْعَلْ كأنّها في الأفق عينُ الأحول

وكان هشام أحول . فأمر به فسُحِبَ ، ووُجِيءُ عنقه<sup>(٢)</sup> ! وأُخرج من  
الرّصافة .

ودخل بعض الشعراء على زياد بن أبيه ، فاستنشده من شعر الأعشى ،  
فلم يفتح عليه لسوء حظه ، إلا بقوله :

رَحَلَتْ « سُمِيَّةُ » غُدُوًّا أَجْمَالَهَا غَضَبِي عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بِدَالِهَا

فقطّب زياد وجهه ! لأن أمّه كانت تسمّى بهذا الاسم ، وكان يُعَيَّرُ بها !

فلم يدخل عليه الشاعر بعد ذلك .

(١) كلى مفرية : الكلى من المزايدة : رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة . وسرب — كسبب — سائل . قال المبرد : وببت ذى الرمة يختار فيه الفتح ، لأنه : اسم ، ومعناه : الماء السائل وخصه بعضهم بالسائل من المزايدة . وعن أبي عبيدة : يروى بالكسر : من سربت المزايدة بالكسر فهي سرية : سالت .

(٢) وجأ عنقه : ضربه ودقه .

ومدح أبو نواس الفضل بن يحيى البرمكى بقصيدة أولها :

أَرْبَعُ الْبَلَى إِنْ الْخَشَوْعَ لِبَادَى      عَلَيْكَ وَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ وَدَادَى  
فَتَطَيَّرَ الْفَضْلَ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ <sup>(١)</sup> !

فلما انتهى إلى قوله :

سَلامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمُو      بَنَى بِرْمَكٍ مِنْ رَاحَتَيْنِ وَغَادَى  
اسْتَحْكَمَ تَطْيِيرَهُ !

وقال لأبى نواس : لقد نعيئت إلينا أنفسنا !  
فيقال : إنه لم يمر أسبوع حتى أوقع بهم الرشيد !  
ومثله قوله :

يَا دَارَ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْأَيَّامَ      لَمْ تَبْقَ فِيكَ بِشَاشَةٌ تُسْتَامُ <sup>(٢)</sup>

ولما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان - وكان من أفخم القصور - جمع أهل بيته وأصحابه ، وأمر أن يلبس كلهم الديباج . وجلس على سريره المذهب !  
فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم ! .  
ثم استأذنه إسحاق الموصلي في الإنشاد . فأذن له . فأنشده شعراً ما سمع الناس أحسن منه في صفته . وصفة المجلس ! إلا أن أوله كان :

يَا دَارَ غَيْرِكَ الْبَلَى وَمَحَالِكِ      يَا لَيْتَ شَعْرَى مَا الَّذِي أَبْلَاكَ

فتطير المعتصم ، وتغامز الناس ، وعجبوا : كيف ذهب هذا على إسحاق ،  
مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك ؟ !

قال الراوى : فأقمنا يوماً وانصرفنا ، فما عاد منّا اثنان إلى ذلك المجلس !

(١) تطير به ومنه : تشاهم به .

(٢) تستام : تطلب .

ثم خرج المعتصم إلى مدينة « سُرَّ من رأى » وخرب القصر<sup>(١)</sup> !  
وقول أبي تمام في مفتتح قصيدة مدح :

تَجَرَّعُ أَسَى قَدْ أَقْفَرَ الْجَرَعَ الْفَرْدُ<sup>(٢)</sup> . . .

وقد أوقعه في هذا المكروه تتبعه التجنيس بين تجرع والجرع !

وقال المتنبي أول لقاء كافور الإخشيدي :

كفى بك داءً أَنْ تَرَى الموتَ شافياً وحسبُ المنايا أَنْ يَكُنَّ أمانيا  
وأُشدُّ ابن مقاتل الضرير ، « الداعي إلى الحقِّ العلوى » في مطلع  
أرجوزة :

موعد أحبابك بالفرقة غدُ

فتطير الداعي ! وقال له : بل موعد أحبابك ! ولك المثل السوء !

ودخل عليه في يوم مهرجانه ، فأنشده :

لَا تَقُلْ بُشْرَى وَلَكِنْ بُشْرِيَانِ غُرَّةُ الداعي ويوم المِهْرَجَانِ  
فتطير الداعي ! وأمر ببطحه ، وضربه خمسين عصا ، وقال : إصلاح  
أدبه ، أبلغ من ثوابه !

والشعراء في كل ذلك لا يخاطبون الناس وإنما يخاطبون أنفسهم بطريق  
التجريد المعروف عند البلغاء ، والمخاطبون — بفتح الطاء — يعرفون ذلك تمام  
المعرفة ، ولكنهم لا يستطيعون احتمال هذه المواجهة بما يشبه الشتم حيناً ،  
والتعريض حيناً ، أو يثير التشاؤم في نفوسهم ، وبخاصة إذا كانوا من ذوى  
الرياسات المدللين بأقدارهم ! والمشفقين من أحداث الزمان ! .

وإنما يؤتى الشاعر في هذه الأشياء — كما يقول ابن رشيق — إمناً من غفلة  
الطبع ، أو من استغراق في الصنعة ، وشغل هاجس بالعمل ، يذهب مع

(١) الموشح - ٣٠١ .

(٢) الجرع - كسب - من معانيه : الرملة الطيبة لا وعوثة فيها .

حسن القول أين ذهب .

والفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها ، وينظر في أحوال المخاطبين ، فيقصد محابيتهم ، ويميل إلى شهواتهم ، وإن خالفت شهوته ، ويتفقد ما يكرهون سماعه ، فيتجنب ذلك<sup>(١)</sup> .

### حسن المقطع :

أن يراعى حسن المقطع ، ويسمى أيضاً : حسن الخاتمة — أى ختام القصيدة — فإنه لا يقل أهمية عن المطلع ! بل ربما فاقه ! لأن به يكون الحكم على القصيدة !

وهو أشبه بالحلواء التى يختم بها الطعام ، فإن لم تكن حلواء فى ختام الطعام كان خداجاً<sup>(٢)</sup> كما يقول الحكماء !

وفى القرآن الكريم « ختامه مسك » فليحذر الشاعر سوء الخاتمة ، فإنما الأعمال بخواتيمها — كما جاء فى الأثر — .

وقد كان شبيب بن شيبه يقول : الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة المقطع وبمدح صاحبه<sup>(٣)</sup> .

ويقول ابن رشيقي : وخاتمة الكلام أبقى فى السمع . وألصق بالنفس ؛ لقرب العهد بها ، فإن حسنت حسن ، وإن قبحت قبح<sup>(٤)</sup> .

### مقاطع حسنة :

ومن المقاطع الحسنة قول أبى تمام فى الاعتذار :

فإن يك ذنب عنَّ أو تلك هفوةٌ  
على خطأ منى فعذرى على عمد<sup>(٥)</sup>

(١) العمدة — ١ — ٤٩ .

(٢) الخداج — ككتاب — : الناقص .

(٣) البيان والتبيين — ١ — ١٠٦ .

(٤) العمدة — ١ — ١٤٧ .

(٥) عن — بتشديد النون — : عرض .

وقول الرستمى :

بقيت مدى الدنيا وملكك راسخٌ وظلك ممدود ، وبابك عامر  
وقول الخوارزمى :

بقيت لنا تجود مدى الليالى فإنك ما بقيت لنا بقينا  
وقول الطغرائى فى نكبة أحد الرؤساء :

وقد زاد طيباً ذكركم مذ مُحِنْتُمْ كذا العود إن شَبَّته نارٌ تَضْوَعاً<sup>(١)</sup>  
وقوله فى اقتناء الأصدقاء :

تريد مهذباً لا عيبَ فيه وهل عودٌ يفوح بلا دخان  
وقول التهامى فى رثاء ابنه :

إذا ما تولى ابنى وولَّيت شبيبتي وولَّى عزائى فالسلامُ على الدهر  
وقول ابن خفاجة يصف معركة ظافرة :

فانجابه ليلُ الخطب عن أفق الهدى وتطلَّع الفتح المبينُ صباحاً  
وقول ابن زيدون فى الحنين والشكوى :

عليك منا سلامُ الله ما بقيتُ صبايةً بلِكِ نُخْفِيهَا فَتُخْفِينَا  
وقوله فى هدية عنب إلى جدّه :

فأنعمْ بالقبول فرُبَّ نُعمى أعدتَ بها دُجى ليلي نهاراً

وقد عرف المتنبي بحسن المطالع والمقاطع معا ، وقد مرّت بعض مطالعه .

أما مقاطعه الجياد ، فنّها فى قصيدة مدح :

(١) محن : أصيب بمحنة .

يَفْنَى الْكَلَامُ وَلَا يُحِيطُ بِفَضْلِكُمْ أَيَحِيطُ مَا يَفْنَى بِمَا لَا يَنْفَدُ

\* \* \*

فَإِنْ تَفَقَّ الْأَنَامُ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمَسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

\* \* \*

مَحَبُّكَ حَيْثَا اتَّجَهْتَ رِكَابِي وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْبِلَادِ

\* \* \*

وَلَوْ جَازَ الْخُلُودُ خَلَدَتْ فَرْدًا وَلَكِنْ لَيْسَ لِلدُّنْيَا خَلِيلٌ

\* \* \*

كُلُّ آبَائِهِ كِرَامُ بَنَى الدُّنْيَا وَلَكِنَّهُ كَرِيمُ الْكِرَامِ

\* \* \*

لَقَدْ حَسُنْتَ بِكَ الْأَوَاقَاتُ حَتَّى كَأَنَّكَ فِي فَمِ الزَّمَنِ ابْتِسَامُ

وَأُعْطِيتَ الَّذِي لَمْ يُعْطَ خَلْقٌ عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ

\* \* \*

قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ أَرْضًا أَنْتَ سَاكِنُهَا وَشَرَّفَ النَّاسَ إِذْ سَوَّاكَ إِنْسَانًا  
وَقَوْلُهُ فِي الْهَجَاءِ :

فَلَوْ كُنْتُ امْرَأً يَهْجَى هَجُونًا وَلَكِنْ ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ  
وَقَوْلُهُ فِي تَعْزِيَةِ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ عَنْ ابْنِهِ :

وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تَوَمَّلَ عِنْدَهُ حَيَاةٌ وَأَنْ يُشْتَاقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ  
وَقَوْلُهُ فِي تَهْيِيبِ جُنُودِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لِقَاءَ الرُّومِ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ لكَثْرَتِهِمْ :

وَمَا الْخَوْفُ إِلَّا مَا تَخَوَّفَهُ الْفَتَى وَمَا الْأَمْنُ إِلَّا مَا رَأَاهُ الْفَتَى أَمْنًا

وفي عتابه لسيف الدولة :

هذا عتابُك إلا أنه مِقَّةٌ      قد ضُمِّنَ الدرَّ إلا أنه كَلِمٌ  
وقوله :

وإن كان ذنبي كلَّ ذنبٍ فإنَّه      محا الذنبَ كلَّ المحومن جاء تائباً  
وقوله في مرضه :

شفاك الذي يَشْفِي بِجودك خَلَقَه      فإنَّك بحر كلُّ بحر له بعض  
وقوله — وقد عوفي مما كان به — :

وما أَخْصُصُكَ في بُرٍّ بِتَهْنِئَةٍ      إذا سلَّمت فكلُّ الناس قد سلموا  
وقول شوقي في مدح الرسول الكريم « الهمزية النبوية » :

خيرُ الوسائل من يَقَعُ منهم على      سببٍ إليك فحسبي « الزَّهراء »  
وقوله في انتحار الطلبة :

إنَّما يَسْمَحُ بِالرُّوحِ الْفَتَى      ساعةَ الرُّوعِ إذا الْجَمْعُ اشْتَجَرَ<sup>(١)</sup>  
فهناك الْأَجْرُ وَالْفَخْرُ معاً      مَنْ يَعْشُ يُحْمَدُ وَمَنْ مَاتَ أُجِرَ  
وقوله في أبي الهول :

تَحَرَّكَ أبا الهول هذا الزما      نْ تَحَرَّكَ ما فيه حتى الحجرُ  
وقوله في مملكة النحل :

ما اقترضتْ من بَقْلَةٍ      أو استعارتْ زَهْرَةً  
أَدَّتْ إلى النَّاسِ به      سُكْرَةً      بِسُكْرَةٍ

وقوله في تكريم أحمد بك حسنين ، بعد قيامه برحلته المعروفة في الصحراء الكبرى :

ولو جَزَّتْكَ الصَّحَارَى جِئْتَنَا مَلِكَا      من الملوكة عليك الريش والودعُ

(١) اشتجروا : تخالفوا وتنازعوا . والروع : المراد : الحرب .



وقوله في تكريم واصف باشا غالى<sup>(١)</sup> :

وإلى الله من مشى بصليب في يديه ومن مشى بهلال  
و « شوقى » محسن فى مطالعه ومقاطعه !

( ١ ) قال شارح ديوانه : ولعل هذه القصيدة إرهاب إلى اتحاد عنصرى هذه الأمة . الشوقيات

## الفصل الخامس عشر

### تجنب الزحافات الرديئة

أن يتجنب الزحافات الرديئة ، التي تشين الوزن ، وتقبح النغم ، وتخيل للأذن الموسيقية : أن البيت مكسور . وما هو بمكسور من حيث العروض !  
والزحاف : ما يلحق أى جزء كان من الأجزاء السبعة التي جعلت موازين الشعر : من نقص أو زيادة ، أو تقديم حرف أو تأخير ، أو تسكينه ، ولا يكاد يسلم منه شعر !

ومن الزحاف : ما هو أخفّ من التّمّام وأحسن ؛ كالذى يستحسن في الجارية : من التفاف البدن ، واعتدال القامة ، والقبّل<sup>(١)</sup> اليسير ، والفلاج<sup>(٢)</sup> واللّثغة ، وكان الخليل بن أحمد يستحسنه في الشعر إذا قلّ منه في البيت والبيتين ، فإذا توالى وكثر في القصيدة سمح ! مثال ذلك « مفاعيلن » في عروض الطويل التام ، تصوير « مفاعيلن » في جميع أبياته . وهذا هو « القبض » وكل ما ذهب خامسه الساكن فهو مقبوض . ويقول إسحاق بن يونس : أهون عيوب الشعر الزحاف . وهو أن ينقص الجزء من سائر الأجزاء ، فنه ما نقصانه أخفى ، ومنه ما هو أشنع ، وهو في ذلك جائز في العروض كقول خالد بن زهير الهذلي لحاله أبي ذؤيب الهذلي :

لعلك إما أم عمرو تبدلت سواك خليلاً شاتمي تستجيرها  
فنقص ساكناً بعد كاف سواك . وهو نون « فعولن » ومن أنشده :  
« خليلاً سواك » كان أشنع .

( ١ ) القبّل - كسب - : مثل الحول أو أحسن منه .

( ٢ ) الفلاج في الأسنان - كسب - : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات .

و « فاعلن » — فى عروض البسيط التام ، وضربه — يصير « فَعْلِلْن »  
 وذلك هو الخبن ، وكل ما ذهب ثانيه الساكن فهو محبوب .  
 و « مفاعلتن » — فى عروض الوافر التام وضربه ؛ حذفوا منه التاء والنون ،  
 وأسكنوا اللام ؛ فصار « مفاعل » ، فخلفه « فعولن » وهذا هو القطف ، وليس فى  
 الشعر مقطوف غيره .

ويخفف على المطبوع أبداً ؛ أن يجعل مكان « مستفعلن » فى الخفيف  
 « مفاعلن » أو على الأصح « متفعلن » يظهر له أحسن .  
 ومن الزحاف : ما يحتمل على كرهه كالفدع والوكع والكزَم<sup>(١)</sup> ، فى بعض  
 الحسان ، ومثاله فى الشعر كثير ، وكفاك قول امرئ القيس :

وتعرف فيه من أبيه شمائل ومن خاله ومن يزيد ومن حجر  
 سماحة ذا ويرّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر  
 فهذا أجمع العلماء بالشعر : أنه ما عمل فى معناه مثله ، إلا أنه على ما تراه  
 من الزحاف المستكره !  
 حكى ذلك أبو عبيدة .

ومنه قبيح مردود لا تقبل النفس عليه ! كقبح الخلق ، واختلاف الأعضاء  
 فى الناس ، وسوء التركيب ، مثاله قصيدة عبيد بن الأبرص المشهورة التى  
 أولها :

أفقر من أهله ملحوب . . . . .

فإنها كادت تكون كلاماً غير موزون بعلّة ولا غيرها ، حتى قال بعض  
 الناس : إنها خطبة ارتجلها ، فاتّزن له أكثرها ! وفيها أبيات قد خرجت عن  
 العروض ألبة ، وقبح ذلك جودة الشعر . حتى أصاره إلى حدّ الردىء منه .  
 فمن ذلك قوله :

( ١ ) الفدع : عيب من عيوب الجسم له معان كثيرة ، منها : المشى على ظهر القدم . والوكع :  
 إقبال الإبهام على السبابة من الرجل . والكزَم : قصر فى الأنف والأصابع .

والحيّ ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب  
ومثله قوله أيضاً :

ألا لله قوم ولدت أختُ بنى سَهْم  
هشام وأبو عبد مناف مدْرَه الخَصْم  
ويسمونه الرّمْل - كسبب - .

والرمل عند العرب : كلّ شعير ليس بمؤلف البناء ، ولا يجدون فيه شيئاً ،  
إلاّ أنه عيب !

قال إسحاق : فإن قيل : كيف يستحسن وهو عيب ؟  
قلنا : قد يكون مثل هذا الخوّل واللّثغ في الجارية ! يُشْتَهَى القليل منه ،  
فإن كثر هَجُنْ وسمُج ! وكالوضّح في الخيل يشتهى ويستظرف خفيفه ،  
كالغُرّة والتّحجيل ، فإذا فشا وكثر ، كان هُجْنَة ووهناً !  
قال : وخفيف البلقّ يحتمل .

ثم قال : ولم أر أبلق سابقاً .

ومن الزحاف المعيب كالرّمْل أيضاً : التخليع .

والتخليع <sup>(١)</sup> : أن يكون قبيح الوزن قد أفرط قائله في تزييفه ، وجعل ذلك  
بِنْيَةً للشعر كله ، حتى ميّله إلى الانكسار ، وأخرجه من باب الشعر الذي  
يعرف السامع له صحة وزنة أول وهلة ! فإنّ ما جرى هذا المجرى من الشعر ،  
ناقص الطلاوة ، قليل الخلاوة ! وذلك كقول الأسود بن يَعرَفَر :

إنّا ذمّمنا على ما خيّلْتُ سعدَ بن زيد وعمرا من تميم  
وضبّة المشتري العارَ بنا وذاك عمّ بنا غير رحيم  
ونحن قوم لنا رِماح وشروة من مَوالٍ وصميم  
لانشتكى الوَصْمُ في الحرب ولا نثنّ منها كتانان السّليم <sup>(٢)</sup>

(١) نقد الشعر - ٦٩ « ط الجوائب » .

(٢) الوصم : العيب والعار . والسليم : اللديغ ؛ كأنهم تفاءلوا له بالسلامة .

ومثله قول عروة بن الورد :

يا هند بنت أبي ذراع      أخلفتني ووترتني عشقي  
ونكحت راعي ثلّة يثمرها      والدهرُ فائتُهُ بما يُبقى<sup>(١)</sup>

وإنّما يستحبّ من التزحيف ما كان غير مُفْرِط ، أو كان في بيت أو بيتين من القصيدة ، من غير توال ولا اتّساق ولا إفراط يخرجّه عن الوزن ، مثلما قال متمّم بن نويرة في قصيدته :

وفقد بني أمّ تَداعَوْا فلم أكن      خِلافَهُم لَأَسْتَكِين وَأَضُرْعَا<sup>(٢)</sup>  
فأما الإفراط والدّوام فقبیح<sup>(٣)</sup> !

وصفوة القول : أن نقص البيت ببعض الزّحافات خير من تمامه ؛ كجعل « متفعّلن » في « الخفيف » بدل « مستفعّلن » التي يظهر معها البيت كأنه مكسور !

ولا يستطيع تمييز الزحاف اللطيف من الشنيع ، إلا الشاعر ذو الذوق السليم والطبع القويم . والأذن المrehفة الموسيقية !  
ورحم الله الأصمعي حيث يقول : الزحاف في الشعر كالرخصة في الفقه .  
لا يُقدم عليها إلّا فقيه !

( ١ ) الثلّة - كفلة - : الجماعة من الناس والغنم .

( ٢ ) خلافهم : بعدهم .

( ٣ ) الموشح - ٨٢ - ٨٣ .

## الفصل السادس عشر

### اختيار الألفاظ الشعرية

يجب على الشاعر أن يختار من الألفاظ ما هو أخلق وأشكل بالشعر؛ فمما لا خلاف فيه: أنه ليست كل كلمة تستعمل في النثر تصلح في الشعر . وفي الشاعر حساسة خاصة ، تفرز له الألفاظ تلقائياً ، وتميّز بعضها من بعض ، وتقدم له منها ما يوافق المزاج الشعري من غير تعب ولا نصب! وبخاصة إذا كان مُرتاضاً، هادئ النفس ، مستريح الخاطر ، ساكن الجأش .

ولكنه في بعض الأحيان قد يُغلب على أمره لسبب ما ، فيرضى بعض الألفاظ التي يبرأ منها الشعر ، فيعاب عليه ذلك !

فمثلاً القلب والفؤاد والكبد والسَّحَر<sup>(١)</sup> والنحر والجيد والترائب والصدر والثغر والثنايا والريق من ألفاظ الشعر ! بخلاف المخ ، والحلق والأضراس والأسنان والمعدة والبطن ، والأمعاء والمصران والمرارة والطَّحَال ، وقد قالوا عن الطحال إنه ما دخل في كلام إلا أفسده ! .

والورد والنسرين والرجس والريحان والآس والسَّوسَن والياسمين من ألفاظ الشعر بخلاف النَّعْنَع والنَّعناع .

والتفاح والرَّمان ، والتين والعنب ، والتَّمَر ؛ بخلاف المشمش والخوخ والبلح والخيار والبطيخ .

وقد أخذ مسلم بن الوليد على أبي العتاهية قوله :  
رويدك يا إنسان لا أنت تَقْفِر<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) السحر - بفتح السين وضمها وسكون الحاء - : الرقة ، وقد تحرك الحاء كنهز ونهر .

( ٢ ) قفر يقفر : وثب من باب ضرب .

وقال : ما خرجت « تقفز » من فم شاعر محسن قط ! .  
ومن ذلك أنهم عدوا الكوب والأرض من ألفاظ الشعر ؛ بخلاف جمعهما  
وهو الأكواب ، والأرضون .  
وعدوا الآجر والقرميد ألفاظاً غير شعرية .  
وهناك ألفاظ عليها مسحة دينية أخرجوها من ألفاظ الشعر !  
فما أنكر على أبي العتاهية قوله في « عُتْبَة » جارية « الحبزُران » التي كان  
يتعشّقها قوله :

إِنِّي أَعُوذُ مِنَ الَّتِي شَغَفْتُ مَنَى الْفَوَادِ بآيَةِ الْكُرْسَى

وآية الكرسي يهرب منها الشياطين ، ويحترس بها من الغيلان ، كما رُوي عن  
ابن مسعود في ذلك .

ولما أنكر الرشيد على إسحاق الموصلي طعنه على أبي العتاهية في شعره ، قال :  
يا أمير المؤمنين ، هو أطبع الناس ، ولكنه ربّما تحرّف !! أيُّ شيء من  
الشعر قوله ؟ ! :

هُوَ اللَّهُ هُوَ اللَّهُ وَلَكِنْ يَغْفِرُ اللَّهُ

ولما أنشد عبدُ الله بن قيس الرقيات ، عبد الملك بن مروان — بعد أن  
صفح عنه وأمنّه — قوله :

اسْمَعْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَدَحِي وَثَنَائِهَا  
أَنْتَ ابْنُ مَعْتَلَجِ الْبَطَا حَ كُدَيْيْهَا وَكَدَائِهَا<sup>(١)</sup>  
وَلِبَطْنِ عَائِشَةَ الَّتِي فَضَلْتُ أَرْوَمَ نَسَائِهَا

لم تعجب عبد الملك كلمة البطن في الشعر والمديح ، وإن كان يرويها رجال  
الأنساب ، وأثر عليها كلمة النّسل .

(١) كدى — بضم وكسر وياء مشددة — : جبل بأسفل مكة . وكداء — كساء — : اسم  
لعرفات ، أو جبل بأعلى مكة دخل النبي — صلى الله عليه وسلم — مكة منه .

ولما أنشد الراعي ، عبد الملك بن مروان قصيدته ؛ فبلغ قوله :

أَخْلِيْفَةُ الرَّحْمَنِ إِنَّا مَعْشَرٌ حَنْفَاءُ نَسْجُدُ بِكَرَّةٍ وَأَصِيلًا  
عَرَبٌ نَرَى لِلَّهِ فِي أَمْوَالِنَا حَقَّ الزَّكَاةِ مُنْزَلًا تَنْزِيلًا

قال له عبد الملك : ليس هذا شعراً ! هذا شرح إسلام ، وقراءة آية <sup>(١)</sup> !  
ومثل هذا : أن الحارث بن خالد المخزومي أنشد ابن عمر قوله :

إِنِّي وَمَا نَحْرُوا غَدَاةً مِنِّي . . . . .

فلما بلغ إلى قوله :

لَعَرَفْتُ مَغْنَاهَا بِمَا احْتَمَلْتُ مِنِّي الضَّلُوعَ لِأَهْلِهَا قَبْلُ

قال له ابن عمر : قل : إن شاء الله !

فقال الحارث : إذن يفسد الشعر يا أبا عبد الرحمن !

فقال ابن عمر : لا خير في شيء تفسده إن شاء الله <sup>(٢)</sup> ! ولكل وجهة !

ولابن الأثير رأى غريب في ألفاظ الشعر والنثر ! فهو يرى أن كل ما  
يسوغ استعماله في الكلام المنثور من الألفاظ ، يسوغ استعماله في الكلام  
المنظوم .

وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم . يسوغ استعماله في  
الكلام المنثور .

ثم يقول : وذلك شيء استنبطته واطَّلعت عليه ؛ لكثرة ممارستي لهذا الفن ،  
ولأن الذوق الذي عندي دلَّتني عليه ، فن شاء فليقلدني فيه ، وإلا فليدمن

(١) الموشح ٢٦٠ .

(٢) زهر الآداب - ١ - ٢٩٠ .



النظر حتى يطلع على ما اطلعت عليه ، والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت<sup>(١)</sup> !

وهذا القول ليس صحيحاً على إطلاقه ، وإن أعجب به ابن الأثير كإعجابه بكل ما ينطق به !

فبعض الكلمات يحسن في الشعر وفي النثر معا .

وبعضها يحسن في النثر لا في الشعر ، وبعضها لا يحسن فيهما . والكلمات التي نسميها غير شعريّة إنما تقبح في الشعر وحده لا في النثر غالباً .

وأما الكلمات التي تحسن في الشعر ، فمن الصعب أن نسلّم بأنها لا تصلح للنثر ، كما يقول ابن الأثير ، اللهم إلاّ إذا كانت موضع ضرورة ، والنثر لا موضع فيه للضرورات ، إذ لنا منادح عنها فيه !

وأغرب من ذلك قوله : إن كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنشور من الألفاظ ، يسوغ استعماله في الكلام المنظوم ، فهو في ذلك يخالف الشعراء جميعاً ، والذي أوقعه في هذا الوهم أنه ناثر غير شاعر ! وحسبنا في ذلك قول ابن رشيق — وهو ناثر وشاعر وناقد — : للشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مأوفة ، لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ، ولا أن يستعمل غيرها ، إلاّ أن يريد شاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي ، فيستعمله في الندرة ، وعلى سبيل الخطّرة ، كما فعل الأعشى قديماً ، وأبو نواس حديثاً ، فلا بأس بذلك ، والفلسفة وجرد الأخبار ، باب آخر غير الشعر<sup>(٢)</sup> .

(١) المثل السائر — ٦٥ .

(٢) العمدة — ١ — ٨٣ .

## الفصل السابع عشر

### إنشاد الشعر من غير قائله

إذا كان منشد الشعر غير القائل له ، فعليه أن يلبس نفس الشاعر ،  
ويحمل مشاعره ، ويتشرب عواطفه ، وينغمر في تجاربه ، حتى يصير  
كأنه هو !

والإنسان فيه قدرة عجيبة على أن يتقمص روح غيره ، ويرجم عن  
وجدانه ، وينطق عن لسانه !

وفي ذلك يقول أبو أيوب المدائني عن الزبير : حدثتني « ظبية » قالت :  
سمعت عبد الله بن مسلم بن جندب ؛ ينشد زوجي : قول قيس بن ذريح<sup>(١)</sup> :

إِذَا ذُكِرْتُ « لُبْنَى » تَأَوَّهَ واشتكى      تَأَوَّهَ محمومٌ عليه البلبال<sup>(٢)</sup>  
يَبِيت وَيُضْحِي تَحْتَ ظِلِّ مَنِيَّةٍ      به رَمَقٌ تَبْكِي عليه القبائل  
قَتِيلٌ لِلْبَنَى صَدَّعَ الحُبُّ قَلْبَهُ      وفي الحُبِّ شُغْلٌ لِلْمَحْبِبِينَ شَاغِلٌ

قال : فصاح زوجي : أَوْه ! وَاحْرَبَاهُ<sup>(٣)</sup> !

أو قال : واسْلَبَاه ! وهى بمعنى واحرباه .

ثم أقبل على ابن جندب ، فقال : ويلك ! أتشد هذا الشعر كذا ؟ !

قال : فكيف أنشده ؟

قال : لم لا تتأوه كما يتأوه ! وتشتكى كما يشتكى ؟ !

( ١ ) قيس بن ذريح : هو المعروف بقيس لبني ؛ وقصته معها من المآسى الصاعدة للأكباد !

( ٢ ) البلبال : جمع بلبله ، وهى شدة الهم والوساوس كالبلبال - يفتح الباء فيهما - .

( ٣ ) واحرباه : - بفتح الراء - من حربته : إذا سلبه .

## المصادر والمراجع مرتبة بحسب ورودها

المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
المفلاوطي :	النظرات	الجوهري :	الصحاح
ديوان أبي فراس الحمداني		الفيروزابادي :	القاموس المحيط
يتيمة الدهر :	ديوان حسان بن ثابت	ابن منظور :	لسان العرب
خمسة أيام في دمشق :	الموشح	« ط . الدار القومية » :	شرح سقط الزند
المرزباني :	طبقات الشعراء والشعراء	« ط . المجمع العلمي بدمشق » :	ديوان ابن حيوس
الجمحي :	ديوان النابغة	« الطبعة الأولى » :	ديوان حافظ إبراهيم
عمر الدسوقي :	النابغة الذبياني	سنة ١٩٠٩ :	المجلة المصرية
د. علي الجندى :	الدوق الأدبي	المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب . . . :	مهرجان حافظ
العباسي :	معاهد التنصيص	ابن خلكان :	وفيات الأعيان
ابن المعتز :	فصول التماثيل	ابن رشيقي « ط . الخانجي » :	العمدة
القنطلي :	إنباه الرواة	« ط . الخانجي » :	أمالى المرتضى
أغاني الساسي		« ط . المطبعة الأميرية » :	أمالى القالي
تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان		ديوان من دواوين :	ديوان من دواوين
ديوان المازني :		العقاد :	صرخة في واد
ديوان الزين		محمود غنيم :	قواعد النقد الأدبي : كرمي ترجمة الدكتور محمد عوض
البيان والتبيين :		جويو. ترجمة الدروبي :	مسائل فلسفة الفن المعاصرة : جويو. ترجمة الدروبي
ديوان لبدي		ديوان المتنبي	
ابن قتيبة الدينوري :	عيون الأخبار	ديوان ابن زيدون	
البديعي :	هبة الأيام	ديوان ابن الخياط الدمشقي : « ط المجمع العلمي بدمشق » :	ديوان ابن الخياط الدمشقي : « ط المجمع العلمي بدمشق »
ديوان أبي تمام		ديوان مهيار	
المستطرف :		ديوان صردر	
الآبشيبي :	المنتخب من الكنايات	الشوقيات	
القاضي الجرجاني :	الكناية والتعريض	ديوان خليل مردم	
التهالبي :	ديوان بشار	ديوان محمد عبد المطلب	
ديوان الفرزدق		ديوان الرصافي	
شرح نهج البلاغة :		ديوان الزهاوى	
ابن أبي الحديد. تحقيق		ديوان صادق الرافعي	
أبي الفضل إبراهيم		ديوان محمد الأسمر	

المؤلف	الكتاب
: أحمد الشايب	أصول النقد الأدبي
: الدكتور إبراهيم أنيس	موسيقى الشعر
: « ط . كامل كيلاني »	ديوان ابن الرومي
	ديوان ابن نباتة
: قدامة	نقد الشعر
: الأنطاكي	تزيين الأسواق
: المغربي	ديوان الصبابة
: ابن جني	الخصائص
: السيوطي	المزهر
	ديوان ابن المعتز
: علي النجدي ناصف	ابن قيس الرقيات
	ديوان الأخطل
: علي الجندی	البلاغة الغنية
: العسكري	الصناعتين
: العسكري	ديوان المعاني
: المعري	اللزوميات
	ديوان الطغرائي
: ابن الأثير	المثل السائر
: علي الجندی	فن الأسجاع
: الصولي	الأوراق
: الخطيب القزويني	الإيضاح
: العماد الأصفهاني	الحريدة
: ابن ظافر الأزدي	بدائع البدائه
: عبدالواحد المراكشي	المعجب في تلخيص أخبار المغرب
	ديوان التهامي
: ابن يعيش	شرح المفصل
	ديوان امرئ القيس
	المعلقات السبع
	ديوان ابن خفاجة

المؤلف	الكتاب
: خليل مردم	مقدمة ديوان ابن حيوس
	ديوان مسلم بن الوليد
	ديوان البحري
: ياقوت الحموي	معجم الأدباء
: الصولي	أخبار البحري
: « ط . وزارة الثقافة »	مختارات من محاضرات الأدباء
: يوسف البديعي	الصباح المنبي
	ديوان البارودي
	محاضرات الراغب
: العكبري	التبيان
: ابن عبد ربه	العقد الفريد
: القتالي	ذيل الأمل والنوادر
: سيبويه	الكتاب
	ديوان أبي نواس
: المعري	سقط الزند
	ديوان عماد
: كامل حجاج	خواطر الخيال
	ديوان الشريف الرضي
: سنة ١٩٥٩ م	مجلة الهلال
: محمود غنيم	في ظلال الثورة
: المرصفي	الكامل . برغبة الآمل
: النويري	نهاية الأرب
: المنسوب لقدامة	نقد النثر
: كرد علي	أمراء البيان
: أحمد فريد رفاعي	عصر المأمون
: محمد برانق	أبو العتاهية
: حسن علوان	صريع الغواني
: البستاني	مقدمة الإلياذة
: طه إبراهيم	تاريخ النقد الأدبي

## فهرس لأهم الموضوعات الفصل الأول

### ٩ . . . . . الإنشاد

النشيد في اللغة وبيان ذلك . الإنشاد موهبة وتفصيل ذلك . حافظ إبراهيم شاعر المحافل . إنشاد حافظ ورأى النقاد فيه : ورثية حافظ لسعد زغلول . رأينا فيها . بيت زائف في المروية . الإخلاء الشعري . الأعشى . وأشجع السلمي . ومروان بن أبي حفصة . حافظ . والعقاد . وغنيم . واتفاقهم في معنى . الشعر الذي يحسن مسموعاً لا مقروءاً . وصف النقاد له . سر احتفال « حافظ » بالبلاغة الصوتية . ما يجب على شعراء الإنشاد .

## الفصل الثاني

### ٢١ . . . . . الشعر ينشد ولا يقرأ

اللغة العربية لغة غنائية . اللغات القديمة تفوق الحديثة إيقاعاً وتنغيماً . اللغة العربية غنية بالقوافي المتناسبة . الشعر غناء . والشاعر مغن . أقوالهم في ذلك . أجمل ما قيل في تصوير الشاعر بأنه كطيور الغرد . الإنشاد في العصر الحديث . وبيان مراحل . الوعي الشعري في البلاد العربية . شبه بين الأعشى والكاظمي و بولس غانم . الشعر يهتاجه الترميم .

## الفصل الثالث

### ٣٤ . . . . . إنشاد الشاعر شعره

الأصل في الشعر أن ينشده صاحبه . أسباب ذلك . يجب على المغني أن يفهم ما يغنيه . حرص الشعراء على إنشاد أشعارهم بأنفسهم . أمثلة لذلك . رأى الجاحظ في إنشاد الشاعر شعره . طرب الرشيد لإنشاد الشعر .

مرثية دعبل الخزاعي لآل البيت ! بكاء المأمون اسماعها . قصيدة للمازني ...  
مثال من شعر الزين .

## الفصل الرابع

### تهيؤ الشاعر للإنشاد

٣٩ اهتمام الشاعر بما يلفت إليه الأنظار . ماذا كان يصنع الشاعر الجاهلي إذا أراد الهجاء ؟ عبقرية لبيد المبكرة . تزيى الشعراء بزي الماضين . ما كان يليسه بشار . الرشيد والعُماني الراجز . المأمون وأبو تمام . إحداد أبي تمام على محمد بن حميد الطوسي ، وإنشاده قصيدته المشهورة فيه ! لبس الكوفية والعقال في حال الإنشاد ، وأثر ذلك .

## الفصل الخامس

### عادة الشعراء في الإنشاد

٤٤ لكل شاعر عادة عرف بها في إنشاده . الخنساء . كعب بن زهير . أبو النجم العجلي . بشار بن برد . الأصمعي . تكبر بعض الشعراء على الإنشاد قائماً . الطرماح بن حكيم . الفرزدق . إجلال بعض الأمراء للشاعر عن أن ينشد قائماً . لا يصلح إنشاد الشعر في حال الجلوس . لا معنى لتكبر الشاعر عن إنشاده قائماً . قبح إنشاد البحترى وقصته مع المتوكل العباسي . فخر العربي بمناقبه طبيعة فيه . تكبر المتنبي عن الإنشاد قائماً في مجلس سيف الدولة . ومخالفته عاداته في بلاط كافور الإخشيدي . دعبل الخزاعي وبعض الوزراء تفاوتت الشعراء لإنشاء وإنشاداً ، وبيان ذلك . أصوات الشعراء حسناً وقبحاً ! العنصر الإنساني في الصوت الجميل . الأصمعي . ذو الرمة .

## الفصل السادس

### الشعراء المحيّدون للإنشاد

٥٦ الأعشى صناجة العرب . تعليل هذه التسمية . قبيلة بكر غنية بالشعراء .

المعروفون بحسن الإنشاد في العصر الأموي : وضاح اليمى . عباد العنبرى .  
أبو النجم العجلى .  
المعروفون بحسن الإنشاد في العصر العباسى : أبو نواس . محمد البيدق .  
أبو سعيد الخزوى .  
المعروفون بحسن الإنشاد في الأندلس : ابن زيدون . ابن حصن .  
المعروفون بحسن الإنشاد في العصر الحديث : حافظ إبراهيم . عبد المطلب .  
على الجارم . محمد الأسمر . محمود رمزى نظم . محمد حمام . كامل  
الشناوى . أحمد عبد الحميد الغزالى . صفة إنشاد كل منهم . بولس غانم  
صناعة العصر الحديث . الشاعر « الرهيب » عبد الله شمس الدين .  
درجة الأصوات تناسب درجة الشعور . شواعر مصر . أثر الأنوثة في  
الإنشاد . وصف شاعرة . شعراء وشواعر سورية : شفيق جبرى . عزيزة  
هارون . الدكتورة طلعت الرفاعى . هند هارون . نبيهة حداد .

### الفصل السابع

#### شعراء لا ينشدون

أو كانوا ينشدون ، وكفوا عن الإنشاد . . . . . ٧٣

أسباب امتناع بعض الشعراء عن الإنشاد . أبو عطاء السندى . الكميت بن  
زيد الأسدى . عاصم بن زيد المعروف بالخشى . عودة اللسان بعد قطعه  
وفتيا الإمام مالك في ذلك . أبو تمام الطائى وتمتمته وهجاؤه . الشريف الرضى  
لا ينشد حياء . امتناع « شوقى » عن إنشاد الشعر ، واختلاف النقاد في  
سبب ذلك . إنشاد الجارم لمراثية شوقى في إسماعيل صبرى . قيمة هذه المراثية  
ونفاستها . اعتذار حافظ عن شوقى في عدم الإنشاد ورأينا في ذلك . الترفع عن  
الإنشاد مع صغار الشعراء في السن . الحسين الخليج . على الجارم . خليل  
مطران والإنشاد . ضعف العقاد ، وعلى الجارم ومحمود عماد عن الإنشاد أخيراً .

## الفصل الثامن

### عذوبة النغمة

- ٨٨ أثر حسن النغمة في الإنشاد. عجائب الصوت وتصرفه في الوجوه المختلفة . قد يطرب الإنسان لما لا يفهمه . حاسة السمع وقيمتها . اللهجة هي التعبير المباشر عن العاطفة . رأى قدماء في الإنشاد الحسن وتحسينه الشعر . الخطابة لا تحتاج إلى حلاوة النغمة كالشعر . حاجة الخطابة إلى جهازة الصوت .

## الفصل التاسع

### حسن الهيئة والشارة

- ٩٥ أناقة بعض الشعراء : أشجع السلمى . ابن ميادة . يزيد بن الطثرية . العباس ابن الأحنف . رأى بعض الخنود في حسن سميت الشاعر . الفرق في ذلك بين الشاعر والخطيب . رأى سهل بن هارون . مخالفتنا له . معسكر الكرم والبخل بين الشعراء في العصر العباسي . عجائب أبى العتاهية في بخله وتقديره .

## الفصل العاشر

### اختيار البحور المناسبة

- ١٠٠ مزية البحر الطويل والبسيط . أثر البحور في الأداء والأسلوب . صعوبة بحر المديد . البحور الطويلة تحتاج إلى ثروة لغوية . صفة البحور ومزايا كل بحر . إثارة الشعراء بعض البحور على بعض . العلة في تسمية البحور . الشاعر المطبوع يعتمد على أذنه لا على العروض . الاعتماد على العروض يقيد الشاعر المطبوع .



## الفصل الحادى عشر اختيار القوافى

- ١١٣ القافية والوزن لا يسمى الشعر شعراً بدونهما . قيمة القافية عند شعراء العرب وشعراء الغرب . يجب على الشاعر تجنب عيوب القوافى . عناية الشعراء بتشقيف أشعارهم وفخرهم بذلك . القوافى الخنثة والتمثيل لها . الشعر البارد وإيراد أمثال له . أبرد ما قيل من الشعر ! الاستدعاء من عيوب القافية . أثره فى إضعاف الشعر . ثقل الشعر الوسط والغناء الوسط .

## الفصل الثانى عشر

### تجنب حروف الروى الكريهة

- ١٢٠ حروف الروى الكريهة . تجنب الأقدمين لهذه الحروف . أشد هذه الحروف بشاعة . لماذا ينظم بعض الشعراء من هذه الحروف ؟ شعراء مولعون بالإغراب . أمثلة مختلفة للأشعار الكريهة الروى . غرام الباروى بلزوم ما لا يلزم . الحروف المكروهة تقبح فى النظم والنثر معا . كلمة للمعرى فى اختيار الحروف .

## الفصل الثالث عشر

### التصريح فى قصائد الإنشاد

- ١٣٢ اشتقاق التصريح . تعريفه عند البلغاء . مكانه المفضل من القصيدة . التصريح فى أثناء القصيدة ودلالته ومضى يحسن ؟ قيمة التصريح فى مفتح القصيدة . التصريح أمسّ الحلى بالشعر . أمثال للتصريح الجيد . مدح الأدباء للتصريح . الشعراء يلتزمون التصريح فى القصائد الطوال . المقاطيع لا تحتاج إلى التصريح كالقصائد . التصريح فى الشعر المعاصر .

## الفصل الرابع عشر

### حسن المطالع والمقاطع

- ١٣٧ معنى المطالع والمقطع . قيمة المطالع وأثره في نفس السامع . المطالع الجيد يصور جو القصيدة إجمالاً . أقوال للنقاد في اختيار المطالع . أمثال للمطالع الجيدة والرديئة . لماذا ينشد الشعراء المطالع القبيحة ؟ جودة مطالع أبي تمام والمتنبي . حسن المقطع . قيمته ومنزلته من القصيدة . أمثال للمقاطع الحسنة . بعض الأدباء يفضلون المقطع على المطالع . مقاطع المتنبي وشوقي .

## الفصل الخامس عشر

### تجنب الزحافات الرديئة

- ١٥٢ الزحافات الرديئة تشين الوزن . وتقبح النغم . اختلاف الزحافات حسناً وقبحاً . بعض الزحافات أحسن من تمام . أمثال للزحافات المختلفة . الرمل والتخليع من عيوب الوزن الرديئة . أثر الذوق في تمييز الزحافات .

## الفصل السادس عشر

### اختيار الألفاظ الشعرية

- ١٥٦ ليست كل كلمة تصلح للشعر . للشاعر حاسة خاصة تفرز له الألفاظ . أمثال للألفاظ الشعرية وغيرها . الألفاظ الفقهية ليست من الشعر . مذهب ابن الأثير في ألفاظ الشعر والنثر . ردنا عليه . رأى ابن رشيق في ألفاظ الشعر .

## الفصل السابع عشر

### إنشاد الشعر من غير قائله

- ١٦٠ إذا كان المنشد غير الشاعر . فعليه أن يتشرب مشاعره . في بعض الناس قدرة عجيبة على تقمص أرواح غيرهم . مثال طريف لإنشاد شعر الغير .

تم بحمد الله وكل

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

**[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)**

## الشعراء وإنشاد الشعر

هذا الكتاب يعد الأول من نوعه بين الأسفار العربية ، ويزيد في أهميته أنه صادر عن أستاذ جامعي شاعر مختص ، درس الإنشاد فناً وعلماً ، وطبقه صناعة وعملاً .

والكتاب يتألف من فصول عدة مترابطة ترابطاً وثيقاً ، يحمل كل منها زاداً ثميناً لقارئه . وهو في جملته دراسة منهجية موضوعية تؤرخ لإنشاد الشعر من أقدم عصوره إلى عصرنا هذا ، وترسم صوراً صادقة أمينة لشعراء الإنشاد قدامى ومحدثين ، رجالاً ونساء ، مع تقييم كل منهم تقييماً صحيحاً في ظل النقد الحصيف ، والموازنة العادلة ، وإيراد الأمثلة والشواهد الموثقة ، والاستهداء بعلم النفس وفلسفة الجمال ، والذوق الأدبي وفن الموسيقى والنغم .

هذا إلى ما تضمنه الكتاب في ثناياه من نظريات دقيقة تثقف الشاعر ، وترهف إحساسه ، وترقق عاطفته ، وتنأى به عن الخطأ في الأداء وتعلمه كيف يستهوى سامعيه .

وفوق ذلك كله حوى الكتاب بحوثاً شائقة تتناول الأوزان والقوافي ومحاسنها وعيوبها ، وميزة كل بحر من البحور العروضية ، مع بيان قيمة البلاغة الصوتية ، وأثرها العميق في تجويد الإنشاد ، وخلاصة الإلقاء ، إلى غير ذلك مما لا يستغنى عنه شاعر ، ولا خطيب ولا أديب .